سيـاسة مصـر تجـاه الأرمـن
فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون
693-689 هـ / 1293-1290م

دكتور/ محمد عبد الستار البنا

مقدمة :

اتسمت العلاقـات بين المماليك والأرمن [1] قبيـل عهد الأشرف خليل [1] . ابـن المنصور قلاوون [2] لأنـها كانت ذات طبيعة عدائية ، كما كان الحال قبل وبعد ذلـك أيضاً طوال زمن سلاطين المماليك .

---

1) الأرمن : هم طائفة من النصارى ، يسكنون إقليم إرمينية وهو صقع عظيم واسـع كثير العمـارة فـى جهـة الشـمال ، وقيـل إن هـذا الإقلـيم عبـارة عـن قسـمين : أرمينيـا الكبـرى ويشـمل مدينـة خـلاط ونواحيها ، وإرمينيا الصـغرى ويضم تفليس ونواحيهـا ، وقيل بـل هو ثـلاث أو أربـع كـور متصل

ويعود هذا العداء إلى أن ملك الأرمن هيثوم الأول [3] Hetthun 623 – 669هـ / 1226 – 1270م انضم إلى هولاكو [4] ليحمى مملكته من خطر سلاقجة الروم بالشمال، ودولة المماليك بالجنوب، فصارت تلك المملكة بذلك تابعة للتتار بفارس، وهم من القوى المعادية للمماليك [5] .

أما عن مظاهر ذلك العداء بين المماليك والأرمن فى عهد المنصور قلاوون، فقد اشترك الأرمن فى الهجوم الذى شنه التتار على بلاد الشام سنة 680هـ / 1281م، وشارك ليون ملك الأرمن بجيوشه فى ميمنة الجيش المغولى، ولكن المماليك انتصروا عليهم فى معركة حمص[6] التى دارت رحاها فى السنة المذكورة وهزموهم شر هزيمة [7] .

بعضها ببعض يقال لكل كورة منها إرمينية . ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) : معجم البلدان 159/1 – 160 ، دار الفكر ، بيروت .

2) الأشرف خليل : تولى بعد وفاة أبيه سنة 689هـ - 1290م ، قاتل الصليبيين واسترد منهم عكا ، وصيدا ، وبيروت . قتله بعض المماليك غيلة بقرية تروجه بالبحيرة سنة 693هـ - 1293م . الكتبى (محمد بن شاكر) : فوات الوفيات والذيل عليها 406/1 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، 1973م .

3) قلاوون : تولى السلطنة سنة 678هـ - 1279م ، وانتصر على التتار ، وملك النوبة ، وأبطل بعض المظالم ، ومن أثاره البيمارستان القلاوونى بين القصرين ، وتوفى سنة 689هـ - 1290م . ابن تغر بردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكى) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة 292/7 ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، الزركلى (خير الدين) : الأعلام 203/5 ، ط10 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1992م .

4) هيثوم الأول : تولى حكم قيليقية بعد أن قام البارون قسطنطين بالى بنقل الملكة السابقة إيزابيل بنت ليون قسراً من سلوقية إلى طرسوس ، وجمع البطارقة والأساقفة والكهنة وكللوها – أى ألبسوها التاج – مع ابنه هيثوم ونادوا به ملكاً على الأرمن سنة 623هـ /1226م ، وتوفى سنة 1271م نتيجة إصابته بدمل فى صدره ، فتوج ابنه ليون من بعده . ابن العبرى (جمال الدين هارون) : تاريخ الزمان ص ص 271 ، 327 -328 ، ترجمة إسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، 1991م .

5) هولاكو : من أعظم ملوك التتار ، استولى على الكثير من البلدان فى مدة يسيرة ، وفتح أذربيجان وخراسان والعراق والشام وغيرهم ، توفى بعلة الصرع سنة 664هـ - 1265م . ابن تغر بردى : المصدر السابق 220/7 – 221 .

1) المقريزى (أحمد بن على) : السلوك لمعرفة دول الملوك 2/1 ص 510 هامش 1 ، نشره محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية .

2) حمص : مدينة مشهورة بالشام بين حماة ودمشق . ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صقاً ، ص 145 ، ط2 ، عالم الكتب ، بيروت 1986م .

3) ابن العبرى : تاريخ الزمان ص 341 – 342 ، تاريخ مختصر الدول ص 288 – 289 ، ط3 ، دار المشرق ، بيروت 1992م ، النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب 31/31-34 ، تحقيق الباز العرينى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1992م .

هذا وقد انتهز التركمان والأكراد أو ما يطلق عليهما ابن العبرى اللصوص ما حصل بعد موقعة حمص المذكورة سابقاً وزحفوا إلى قيليقية – أى إرمينيا الصغرى – ووصلوا إلى آياس[1] وأحرقوها ، ولكن أهلها كانوا قد غادروها ولاذوا بإحدى القلاع القريبة منها ، ولم يكتفى اللصوص بذلك بل هاجموا بلاد الأرمن أكثر من مرة خلال سنة 681 هـ / 1282م ووصلوا إلى تل حمدون [2] واستولوا على الكثير من الغنائم ، بيدا أن الأرمن أغلقوا دونهم الثغور أثناء رجوعهم وأجهزوا عليهم [3] .

وفى نفس العام المشار إليه سابقاً احتل حاكم قلعة ألبيرة [4] حصن زياد [5] ، ، ثم عبر نهر الفرات، واتجه بمن معه صوب مدينة ملطية [6]، وغزوا ضواحيها، ضواحيها، واستاقوا الكثير من الأسرى وقفلوا إلى بلاد الشام [7] .

وفى العام التالى أى فى سنة 682هـ / 1283م فتح المنصور قلاوون قلعة الكختا [8] لأنها كانت من الحصون المنيعة، فراسل من بها، ومناهم بالأمانى والوعود الجميلة، فقتلوا حاكمها وأرسلوا إلى نائب السلطان بحلب وعرضوا عليه تسليمها بالأمان فتسلمها منهم، وأتى للسلطان وفداً من سكانها فأحسن إليهم، وأقطع منهم من يستحق الإقطاع، وشحن هذه القلعة بالسلاح، وأصبحت واحدة من أعظم الثغور الإسلامية منفعة، كما سارت شجى فى حلق الأرمن [9] .

---

4) آياس : بلدة كبيرة على ساحل البحر المتوسط ، بينها وبين مدينة بغراس مرحلتان . الحريرى (أحمد بن على) : الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ص65 هامش 491 ، تحقيق مهدى رزق الله أحمد ، ط1 ، دار الدعوة ، الإسكندرية 1986م .
5) تل حمدون : أحد الحصون التى تتبع ثغر المصيصة (ملطية) . ياقوت : معجم البلدان 48/2 ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت 1992م ، الإدريسى (محمد بن عبد الله) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق 814/2 ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 1989م .
6) تاريخ الزمان ص342 .
1) ألبيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهى قلعة تمتاز بحصانتها . (ياقوت : المصدر السابق 526/1).
2) حصن زياد : يقع بين مدينتى آمد وملطية بإرمينيا ، وهو أقرب إلى ملطية ويعرف بخرتبرت . (ياقوت : نفس المصدر 264/2) .
3) ملطية : إحدى مدن الروم المشهورة التى تتاخم الشام ، بناها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام العباسى سنة 140هـ /757م ، وخرجت منها الصوائف لغزو الروم . (ياقوت نفسه 223/5) .
4) ابن العبرى : المصدر السابق ص 342 – 343 .
5) الكختا : قلعة حصينة فى شرق ملطية ، كانت تحت حكم الأرمن . ابن حبيب (الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه 80/1 هامش 2 ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتب 1976م.
6) النويرى المصدر السابق 38/31 ، ابن حبيب المصدر السابق 80/1 .

واستمراراً لسياسة العداء بين المماليك والأرمن وإصرار المنصور قلاوون على تأديبهم، أرسل في نفس العام 682هـ / 1283م إلى نائبه بحلب ليغير على بلاد سيس [1] ؛ لأن الأرمن أحرقوا جامع حلب عندما جاءوا صحبة التتار أثناء غاراتهم على بلاد الشام، فهاجمت الجيوش المصرية الشامية بلاد الأرمن، ووصلوا بغاراتهم إلى مدينة آياس فقتلوا من أهلها جماعة ونهبوها وخربوها. وخلال عودتهم اصطدموا بعسكر الأرمن، فانتصر المسلمون وطاردوهم حتى تل حمدون، وقتلوا مجموعة من فرسانهم، ثم عادوا لبلادهم [2] .

لقد عزم المنصور قلاوون على استئصال شأفة هؤلاء الأرمن المارقين ، ففى صيف سنة 683هـ / 1284م انتهز فرصة اقتتال المغول مع بعضهم البعض فأرسل حاكم ألبيرة فى ثلاثة آلاف فارس فهاجموا إحدى بلاد الأرمن، ليقبضوا على أحد قادة الأرمن المشهورين، ويحملوه فى قفص ويذهبوا به حياً إليه؛ لأنه كان يؤذى عرب بلاد الشام، فعبر الجيش الإسلامى نهر الفرات، ووصلوا إلى قلعة تينا – إحدى قلاع الأرمن – ولكن أصيب حاكم ألبيرة بسهم فى صدره فانزعج أصحابه وتركوا القلعة وفروا إلى بلاد الشام . ومن الغريب أن يعلق ابن العبرى على ما حدث بقوله: "وهكذا انتقم العدل الإلهى من حاكم ألبيرة الذى بالغ فى نهب المسيحيين وأخرب ضواحى ملطية وحصن زياد [3] . " فى حين نسى أو أو تناسى السبب الذى من أجله شن المماليك هذه الحملة على بلاد الأرمن .

ومرة أخرى خرجت الجيوش الإسلامية من بلاد الشام فى سنة 688هـ / 1289م وهاجمت ملطية بالإضافة إلى أحد حصون الأرمن الأخرى، فسمع أحد قوادهم بذلك فحشد جيوشه وسار لمناوشة المسلمين، ولكنه هُزم وهلك من أصحابه جمع غفير، واعتقل البعض، بينما أفلت هو وأربعون من رجاله وامتنعوا فى بعض الأماكن الحصينة وقد علاهم الهم وأخذوا يفكرون فى طريقة ينقذون بها أسراهم [4] .

ونتيجة لهذه الضربات القوية، أرسل الأرمن فى نفس العام أى سنة 688هـ / 1289م إلى المنصور قلاوون يخطبون وده، فبينما هو بطرابلس [5] . وصلته رسل صاحب سيس يلتمسون عطفه ورضائه . فطلب منهم تسلم مرعش [6]،

---

7) سيس : من أعظم ثغور الشام بين أنطاكية وطرسوس ، بها قلعة ذات ثلاثة أسوار ، وهى مقر ملك الأرمن وحاضرة بلادهم (ياقوت نفسه 297/3- 298)

1) النويرى : نهاية الأرب 38/31-39 .

2) تاريخ الزمان ص348 .

3) ابن العبرى : المصدر السابق ص 358 .

4) طرابلس : مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسط ، ويحيط بها سور من الصخر جليل البنيان ، وبها أسواق حافلة . (ياقوت : معجم البلدان 25/4) .

5) مرعش : إحدى مدن ثغور إقليم الجزيرة ، تقع بين بلاد الشام والروم ، يتوسطها حصن عليه سور بناه مروان بن محمد الأموى . (ياقوت : المصدر السابق 126/5 ، الإدريسى : المصدر السباق 652/2)

وبهسنا [1]، بالإضافة إلى مبلغ من المال يؤدى سنوياً كما جرت العادة . فرجعوا لبلادهم ثم عادوا ومعهم هدايا كثيرة غير أنهم اعتذروا عن تسليم المدن المذكورة واكتفوا بدفع مبالغ مالية كبيرة فى كل سنة [2] .

وهكذا كانت طبيعة العلاقات بين المماليك والأرمن ذات طابع عدائى فى عهد المنصور قلاوون وهو ما استمر فى عهد ابنه السلطان الأشرف خليل، وما ذلك إلا لمساندتهم للتتار ضد المماليك من ناحية، وإيذائهم المستمر لسكان شمال الشام من ناحية أخرى .

أولاً: فتح قلعة الروم :

موقعها وصفاتها :

تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات مقابل مدينة البيرة وعلى بعد مرحلة منها، وهى فى ذات الوقت قريبة من مدن الرها، وسميساط، وحلب التى تبعد عنها بحوالى خمس مراحل من جهة الشمال الغربى [3] . وتسمى بالأرمينية "هروم كلين" ومعناه فى اللغة العربية قلعة الروم، وكانت هذه القلعة كرسى مملكة الأرمن ويقيم بها البطريرك وأسمه أيضاً بلغة الأرمن كتاغيكوس[4] أو كاغبكوس[5] أو الكيثاغيكوس والذى كان قد تجاوز المائة سنة [6] .

أما عن صفتها فقد كانت عبارة عن ثلاث قلاع شوامخ على سن جبل بين عدة جبال يحيط بها عدة أسوار احتفل بها الأرمن عندما شيدوها غاية الاحتفال، وهى إحدى القلاع الحصينة التى تتميز بالارتفاع والمنعة وليس من السهل الوصول إليها إلا عبر أحد الطرق الصعبة التى لا يستطيع الفارس سلوكها إلا بشق الأنفس، وذلك لصعوبة موقعها وهو ما يتضح فى قول الشاعر:

عقاب بها كل العقاب ومحجر كأنى أمشى فوقه بالمحاجر [7]

---

1) بهسنا : قلعة حصينة تقع بالقرب من مرعش وسميساط ، كانت من أعمال حلب . (ياقوت : نفس المصدر 611/1).
2) النويرى : المصدر السابق 163/31 .
3) أبو الفداء (إسماعيل بن محمد) : تقويم البلدان ص269 ، دار الطباعة السلطانية ، بيروت 1850م
4) ياقوت : معجم البلدان 443/4 .
5) ابن عبد الحق (صفى الدين عبدالمؤمن) مراصد الإطلاع م11183/3 ، تحقيق على محمد البجاوى ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت 1992م
6) العينى (محمد بن أحمد) : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ص121 ، حققه محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب 1990م
1) العينى : المصدر السابق ص 122 .

ويوجد حول هذه القلعة بعض بساتين الفاكهة ويمر بها نهر مرزبان الذى ينبع من أحد الجبال ويصب فى نهر الفرات الذى يمر تحت ذيلها. ويسكن أهلها فى بيوت عبارة عن مغائر منقورة فى الجبل بصورة محكمة الصنعة [1].

وقد كان هذا الموقع يمثل خطورة بالغة على دولة المماليك فى مصر والشام من جهة الشمال، مما جعلها محوراً لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من جهة والأرمن والتتار من جهة أخرى لأن أهلها من النصارى كانوا خاضعين لحكم المغول [2] ، ولهم بها شحنة[3] .

وقد تنبه سلاطين المماليك لخطورة موقعها على سلامة دولتهم، ولذلك حرص الأشرف خليل على استمرار أعمال الترميم فى قلعة حلب القريبة منها والتى بدأت منذ عهد والده المنصور قلاوون، وكان قد خربها هولاكو عندما استولى على حلب سنة 658هـ / 1260م، وظلت على ذلك حتى شرع نائبها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى [4] فى تعميرها خلال حكم قلاوون فأحكم بنيانها وأدار سورها إلى أن فرغ من عمارتها فى أوائل سنة 690هـ/1291م فى أيام الأشرف خليل فكتب عليها أسمه وألقابه بعد أن بقيت خراباً حوالى ثلاثة وثلاثين سنة تقريباً [5] .

أسباب فتحها :

لخص لنا بيبرس المنصورى الذى اشترك فى هذه الحملة الأسباب التى دفعت السلطان المملوكي الأشرف خليل لفتح قلعة الروم بأنه كان يريد أن يبسط سيطرته على شمال بلاد الشام حيث لم يبق خارجاً عن سيطرته سوى هذه القلعة التى تقع فى أطراف مملكته، كما دأب أهلها على الإغارة على المسلمين

---

2) القلقشندى (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا 124/4 ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط1 ، دار الباز بمكة ، ودار الكتب العلمية ، بيروت 1987م .

3) الذهبى (محمد بن أحمد) : العبر فى أخبار من غبر 371/5 ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط2 ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت 1984م ، ابن العماد (عبد الحى بن أحمد) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب 418/5 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

4) الشحنة : رياسة الشرطة ، أو محافظ المدينة ، أو الأمير المشرف على حراستها . ابن شداد (يوسف ابن رافع) : سيرة صلاح الدين ص123 هامش 1 ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط2 ، مكتبة الخانجى 1994م .

5) قراسنقر : تولى نيابة السلطنة بمصر ودمشق وحماة وحلب ، وكان ذا همة عالية ، توفى بمراغة بأذربيجان سنة 728هـ / 1327م ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 273/9 – 274 .

1) تاريخ أبى الفداء 27/4 ، المطبعة العامة 1828م ، ابن حبيب : تذكرة النبيه 140/1 ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك 774/3/1-775 ، حققه محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1939م

المجاورين لهم، وعابرى السبيل الذين يمرون بها [1]، أضف إلى ذلك نزوح الكثير من التتار إليها عندما اختلفوا ونشبت بينهم الحروب بعد وفاة ملكهم أرغون [2] واتفقوا مع الأرمن على قطع الطريق على المسلمين، وأخذوا منهم بالفعل الكثير من الأسرى، فأرسل نائب حلب إلى السلطان يخبره بأن الأرمن عاثوا فى الأرض وأكثروا فيها الفساد، وأنه لم يعد فى ديار الإسلام من قلاع الكفر غيرها وحثه على فتحها [3] .

كيف تم فتحها ؟

لم يشأ السلطان الأشرف خليل أن ينفرد بالأمر، بل اجتمع بأمراء المماليك وشاورهم فى أمر فتحها وعندما أجابوه، شرع فى تجهيز عساكر مصر، وكتب إلى نواب الشام بإعداد آلات الحصار، ثم خرج من مصر فى ربيع الأول سنة 691هـ/1291م [4] وقيل فى يوم السبت الثامن من ربيع الأخر[5]، إلى دمشق التى التى وصلها فى الثامن من جمادى الأولى، وهناك التقى بصاحب حماة الملك المظفر [6] ، وعمه الملك الأفضل [7] اللذان سبقاه إلى حماة حيث مُد له سماطا [8]عظيماً بميدانها [9] .

---

2) التحفة المملوكية فى الدولة التركية ص130-131 ، نشرة عبد الحميد صالح حمدان ، ط1 ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1987م .

3) أرغون : هو أرغون بن إبغا بن هولاكو ، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو فعظم فى أعين المغول ، مات سنة 690هـ - 1291م مسموماً فاتهم المغول وزيره اليهودى سعد الدولة بقتله فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . (ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص 298 – 299 ، العينى : المصدر السابق ص 104 ، 106) .

4) العينى : نفس المصدر ص110-111 .

5) ابن كثير (إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية ج327/13 ، مكتبة المعارف ، بيروت ، سعيد عبدالفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص45 ، مكتبة النهضة المصرية .

1) المقريزى : المقفى الكبير 797/3 ، تحقيق محمد اليعلاوى ، ط1 ، درا الغرب الإسلامى ، بيروت 1991م ، ابن حبيب : المصدر السابق 149/1

2) الملك المظفر : هو محمود بن محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، ولد ليلة الأحد 15 محرم سنة 657هـ - 1299م ، وتوفى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى العقدة سنة 698هـ - 1299م . الحنبلى (أحمد بن إبراهيم) : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص401 - 405 ، تحقيق مديحة الشرقاوى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1996م .

3) الملك الأفضل : هو على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ولد فى أواخر سنة 635هـ / 1238م وتوفى بدمشق فى مستهل ذى الحجة سنة 692هـ / 1293م ، ونقل لحماة فدفن بها . (الحنبلى : المصدر السابق ص 395) .

4) السماط : المائدة السلطانية أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين . (مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ص321 ، المطابع الأميرية ، ط1996 – 1997م ، المقريزى : السلوك 2/1 ص 319 هامش 1 .

5) تاريخ أبى الفداء 27/4 .

وقد صورت لنا المصادر ما كان يصطحبه المماليك معهم من الخيرات والأطعمة فى حملاتهم، فقد دأب جماعة من الأمراء منهم جمال الدين الطبردار [1] [1] ، وبدر الدين الجاكى [2] على إرسال عشرين درهماً يومياً إلى المطبخ السلطانى، فيأتى للفرد منهم طبق ملئ بالأطعمة الفاخرة به أكثر من خمسة عشر رطلاً من اللحم، أو عشرة أطيار من الدجاج، كما قام الكثير من الجنود والغلمان بشراء الأطعمة المتنوعة من مطابخ الأمراء، وبلغ من كثرة الخيرات أن الغلمان زهدوا فى الطعام، ورفضوا أن يأكلوا من أطعمة أساتذتهم، كذلك حرص الأمراء على ألا يتناول أحد طعامه حتى يتفقد ما حوله من الغلمان والخدام والحاشية ومن انضافوا إليه أو نزلوا بالقرب منه، فيرسل إليهم من الأكل والشرب والغنم والطيور والسكر والحلوى فى آنية من الذهب أو الفضة كل حسب قدره، وكان هذا مثار تباهي وتفاخر فيما بينهم [3] .

بل بلغ من الترف الذى عاشه أفراد الجيش المملوكي المتجه لبلاد الروم أن السلطان أراد أن يطعم الأمراء نوعاً من الحلوى تسمى السكب بمنزله الورادة [4] [4] التى تقع فى منطقة الرمل [5] وتولى عمل ذلك الأمير حسام الدين الاستادار [6] ، فاحتاجوا إلى فستق ، فوجدوا فى حوائج خاناه بيدرا [7] نائب السلطان -

---

6) الطبردار : هو الذى يحمل الطبر أى الفأس حول السلطان عند ركوبه فى المواكب وغيرها . وهو مركب من لفظين فارسيين : إحدهما طبر ومعناه الفأس ، والثانى دار ومعناه ممسك ، فيكون المعنى ممسك الطبر . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا 458/5 ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

7) بدر الدين الجاكى : احد كبار الأمراء ، شغل منصب والى الإسكندرية زمن الأشرف خليل ، تعرض لظلم شديد من قبل الوزير شمس الدين السلعوس . العينى : المصدر السابق ص ص 202 ، 212 ، 228 .

1) العينى : نفس المصدر ص212 .

2) الواردة : منزل فى طريق مصر من جهة الشمال وسط تلال رملية وماء مالح من أعمال الجفار . (ياقوت : معجم البلدان 425/5) .

3) الرمل : منطقة تقع بين فلسطين ومصر ، وفيها طريق الشام . النويرى : المصدر السابق 477/29 هامش 1

4) الاستادار : لقب يطلق على الذى يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه . وهو مركب من لفظتين فارسيتين : استذ ومعناها الأخذ . ودار ، ومعناها الممسك ، فيكون المعنى المتولى للأخذ ، لأنه يتولى قبض المال (القلقشندى : المصدر السابق 457/5 ، السبكى (عبد الوهاب بن على) : معيد النعم ومبيد النقم ص 26 – 27 ، تحقيق محمد على النجار وآخرون ، ط2 ، مكتبة الخانجى ، القاهرة 1993م .

5) بيدرا : بدر الدين بيدرا بن عبد الله المنصورى أصله من جملة المغول الذين وصلوا البلاد من عسكر هولاكو ، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار نائب السلطان الأشرف خليل ثم اشترك فى قتله فقتله المماليك الأشرفية ومثلوا بجثته سنة 693هـ / 1293م . ابن حبيب : المصدر السابق 168/1 ، ابن إياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج1 ، ق1 ص 375 ، تحقيق محمد مصطفى ، ط2 ، الهيئة المصرة العامة للكتاب ، 1982 .

وكان يحب التأنق فى المأكل ويعتنى بها ـ ثمانية أحمال فستق بغير قشر وستة أخرى بقشر، فبعث منه حملا عملت منه الحلوى وفرقوها على الأمراء[1].

كما واجهت المسلمين بعض المصاعب الطبيعية خلال مدة الحصار، كالزلازل والصواعق والأمطار، فبينما كان الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطان جالساً ذات يوم فى خيمته يتهيأ لتناول الطعام وإذا بصاعقة تنفذ من الخيمة ووقعت على ظهر أحد الفراشين فقصمته نصفين، وأحدثت حفرة فى الأرض ، فأصيب الموجدين بالهلع ، وانتفض بيدرا من مكانه وقام وفى قلبه رجفة عظيمة [2].

وأيا كانت المتاعب التى واجهت الجيش المملوكي المحاصر لقلعة الروم، فإنهم صمموا على إحكام الحصار حولها مما دفع بأهلها إلى الاستنجاد بصاحب سيس، الذى لجأ إلى حيلة ماكرة هدفها إرهاب الجيش المملوكي وإضعاف عزيمته للقتال ، فعندما شعر بعجزه عن مساعدة الأرمن بقلعة الروم أرسل خمسة آلاف فارس تحت قيادة ثلاثة من أمراء الأرمن وتشبهوا بالمغول فى زيهم ورياتهم وطبولهم ثم أمرهم بالنزول عند الفرات واجتيازه بحيث يراهم الأهالي هناك والعرب، فيظنون أنهم من المغول، فينتقل الخبر إلى الجيش المملوكي ومن ثم يتسلل الوهن إلى الجند، وربما رفعوا الحصار عن إخوانهم من الأرمن، وبالفعل التبس الأمر على جماعة من عرب آل مهنا [3] كانوا فى طريقهم للانضمام للقوات المملوكية، فأخبروا السلطان أنهم رأوا بعض القوات المغولية عبرت الفرات وهم قاصدون العسكر الإسلامي، فأظهر الأرمن الفرح ودقت نواقيسهم.

أما الأشرف خليل فأوعز سرا لنائبه بيدرا أن يشيع أنه سيفك الحصار عن القلعة ويرجع إليها فى العام القادم، لأنه ضجر من أمرها، ومن كثرة الأمطار والثلوج وشدة البرد، ولعلمه أن المغول فى طريقهم لنجدة القلعة، ثم شرع السلطان فى استطلاع آراء بعض أمرائه بعدما أذاع بيدرا ما قاله له فأبدي الأمير

---

6) المقريزى : المقفى الكبير 567/2 ، العينى : نفس المصدر ص219 .
7) العينى : نفسه ص 117 .
1) آل مهنا : هم أحد بطون آل فضل بن ربيعة من سادات عرب الشام ، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة ، وصيت عظيم ، وقد صار آل فضل بيوتاً أرفعها قدراً بيت عيسى بن مهنا ، ثم صار آل عيسى بيوتاً من أعظمها بيت مهنا بن عيسى الذى وفد على الأشرف الخليل وهو بالشام فقبض عليه هو وجماعة من قومه وبعث بهم إلى قلعة الجبل بمصر فاعتقلوا بها حتى أطلق سراحهم العادل كتبغا سنة 694هـ / 1294م القلقشندى صبح الأعشى 376/1 – 378 ، جـ4 211-212 ، تحقيق يوسف على طويل ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق 1987م .

ركن الدين بيبرس بن عبدالله الجالق الصالحى [1] رغبة فى عدم الانسحاب إلا إذا توفر سبب قوى يقتضى ذلك . كما اعترض الأمير حسام الدين لاجين [2] على رفع الحصار حتى لو تعرض الجميع للهلاك خاصة بعد مقتل جماعة من المسلمين، ولم يعجبه كلامه. أما الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحى [3] فقد انتابه الغضب ، وتفوه بكلام أغضب الأشرف خليل فقال معلقاً على فكرة الرحيل لبيدرا وهو يقصد السلطان : الحرب لعب الصغار ، فحنق عليه ولكنه أرجأ أمره فيما بعد ، واستشاره فى أمر التتار الذين اجتازوا الفرات ، فاستأذنه الأشقر فى لقائهم فإما أن ينتصر عليهم أو يموت فى سبيل الله، ونصح السلطان بالاستمرار فى حصار قلعة الروم حتى لا يشمت أعداء المسلمين فيهم ، فالموت فى هذه الحالة خير من هذه السمعة وبالفعل خرج ألفي فارس بزعامة سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بكتاش بن عبد الله الفخري [4] أمير سلاح [5] وبصحبتهم جماعة من عرب آل مهنا، وآل فضل [6] ، وآل مري [7] ، وبنو كلاب [8] ، فضلاً عن أمراء التركمان ، وساروا حتى بلغوا الفرات فلم يجدوا أحدا ، لأن

---

2) بيبرس الجالق : كان من كبار الأمراء البحرية ، خيراً ديناً ، كثير البر والإحسان ، توفى بدمشق سنة 707هـ / 1307م ، ثم نقل إلى القدس الشريف فدفن بها . ابن حبيب تذكرة النبيه 282/1 ، ابن الوردى (عمر بن مظفر): تتمة المختصر فى أخبار البشر 365/2 ، المطبعة الحيدرية ، النجف 1969م .

1) حسام الدين : هو السلطان حسام الدين لاجين المنصورى ، توفى مقتولاً فى ربيع الأخر سنة 698هـ - 1298م ، ودفن فى تربته بالقرافة . ابن حبيب : المصدر السابق 212/1 ، ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور 1/1 ص 399 – 400 .

2) سنقر الأشقر : تولى نيابة السلطنة بدمشق سنة 678هـ / 1279م ، وطلب الملك لنفسه ولكنه لم ينله ، ثم أعدمه الأشرف خليل بالقاهرة بعدما اشترك فى محاولة اغتياله سنة 691هـ /1292م . ابن حبيب نفس المصدر 49/1 ، 154 ، النويرى : المصدر السابق 245/31 ، ابن كثير : المصدر السابق 368/13 ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، ط5 ، دار الحديث ، القاهرة 1998م .

3) بكتاش الفخرى : هو من كبار الأمراء الذين بذغ نجمهم ، رفض الملك عقب مقتل الملك المنصور لاجين ، وأشار بالناصر محمد بن قلاوون ، تنازل عن الإمارة لكبر سنه وأقام بمنزله حتى توفى فى ربيع الأول سنة 706هـ / 1306م . (ابن تغر بردى : النجوم الزاهرة 298/7 هامش 3) .

4) أمير سلاح : لقب يطلق على الذى يتولى أمر سلاح السلطان أو الأمير . القلشندى : صبح الأعشى 456/5 .

5) آل فضل : هم بنو فضل بن ربيعة من عرب الشام ، يزعمون أنهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكى ، وقيل بل ينتسبون إلى ابن عنيز ابن سلامان بن طئ ويتميزون بالبأس والنجدة والكرم . (القلقشندى : المصدر السابق 376/1- 378)

6) آل مرى : ينتسبون إلى مرى بن ربيعة أخو فضل ومنازلهم حوران ، وتمتد ديارهم من بلاد الجولان إلى الزرقاء والخليل إلى بصرى ، وشرقاً بالقرب من مكة . (القلقشندى : نفس المصدر : 215/4) .

7) بنو كلاب : هم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، كانت ديارهم ببعض جهات المدينة المنورة وفدك والعوالى، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام وذاع صيتهم فى الجزيرة الفراتية ، وملكوا

لأن الأرمن الذين جاءوا من سيس عندما عرفوا بذلك نكصوا على أعقابهم خاسرين[1] .

وثمة رواية أخرى تخالف الرواية السابقة التى نقلها العينى عن مؤرخ آخر ، وقد وردت على لسان بيبرس المنصورى وهى أصح لأنه كان شاهد عيان . وملخصها أن الأشرف خليل أغار على قلعة الروم بعدما ثبت لديه أن المغول يتخذونها قاعدة للإغارة على البلاد التابعة لدولة المماليك من الشمال. وفى أثناء حصار المسلمين لها ، لاحت لهم بعض عساكر التتار فى الجانب الشرقي للفرات ، فجرد الأشرف خليل إليهم بعض القوات التى أسند قيادتها لمجموعة من كبار الأمراء منهم بدر الدين بكتاش أمير سلاح ، وركن الدين طقصوا الناصرى [2] وسيف الدين بلبان الحلبي [3] ، وحسام الدين لاجين السلحدار المنصوري ، فساروا حتى بلغوا الفرات فاجتازوه عبر مخاضة شميصاط [4] ، غير أن المغول عندما شعروا بهم ولوا الأدبار ولم يعثر المماليك إلا على آثارهم ، ومواقد نارهم ، فرجعوا إلى البيرة ومنها إلى قلعة الروم حيث استمرت عملية الحصار حتى من الله عليهم بفتحها . وكان ممن شاركوا ضمن قوات المغول فى هذه الحملة الأمير سيف الدين ويقال بدر الدين جنكلي ابن البابا [5] الذى قدم إلى مصر فى زمن الناصر محمد بن قلاوون ، فحكي أن التتار كان عددهم فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف فارس ، وكان يقودهم المقدم بيتمش ويقال نيتمش ، وقد حاولوا انتهاز فرصة اجتماع العسكر الإسلامي على قلعة الروم و مباغتتهم ، غير أنهم غيروا

حلب ونواحيها ، ثم انتابهم الضعف بعد ذلك وساروا تحت خفارة أمراء عرب ربيعة . (القلقشندى : نفسه 393/1) .

1) العينى : المصدر السابق ص114-115 .

2) طقصوا : هو ركن الدين بيبرس ابن عبد الله الناصرى التركى ، قبض عليه الأشرف خليل ببلاد الشام ، لاشتراكه فى محاولة قتله ، وأرسله إلى مصر وهناك أعدمه سنة 691هـ / 1291م . ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين 107/1 هامش 4 ، تحقيق محمد كمال عز الدين على ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 1985م .

3) بلبان الحلبى : هو الأمير سيف الدين بلبان السلحدار المنصورى ، المعروف بالطباخى ، ولى نيابة السلطنة بحلب لفترة ، وكانت سيرته حميدة قليل الأذى ، توفى سنة 700هـ / 1300م . العينى : المصدر السابق ص 156 ، ابن العماد : شذرات الدهب 457/5 .

4) شميصاط : ويقال سميساط أو شميصات ، مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات ، ولها قلعة فى شق منها يسكن الأرمن . (ياقوت : معجم البلدان 258/3) .

5) ابن البابا : هو بدر الدين جنكلى بن محمد بن البابا أتابك العساكر بمصر ، أصله من بلاد الروم ، قدم مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون . وكان ينفع العلماء والصلحاء والفقراء بماله وجاهه ، توفى سنة 746هـ / 1345م . (ابن تغر بردى : المصدر السابق 143/10 – 144) .

رأيهم ، عندما رأوا الجيوش الإسلامية مجتمعه على تلك الحال ، وقد ملأت السهول والجبال ، فلاذوا بالفرار وولوا الأدبار[1] .

أما عن كيفية استيلاء المسلمين على هذه القلعة فبعد فرار المغول من وجه المسلمين عادوا أشد عزماً على فتحها ، واستمروا فى رميها بالمجانيق ، ونقبوا أسوارها بالمعاول ، حتى يسر الله سبحانه وتعالى فتحها بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من الحصار وكان للأمير الشجاعي [2] . نائب دمشق دوراً بارزاً فى ذلك ، فإنه تحيل فى عمل سلسلة عظيمة وعلقها بالقرب من شراريف القلعة، وثبت طرفها بالأرض فتمسك الجند بها وصعدوا إلى القلعة وقاتلوا من فيها قتالاً شديداً، ومن هؤلاء الذين وصلوا للقلعة سيف الدين أقجبا، أحد مماليك الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، ولم يكن من أعيان مماليكه ، بل كان يخدم ولده صلاح الدين خليل، فتحيل وصعد إلى سور القلعة ، وقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حميداً وجرح ثم رجع والسلطان ينظر إليه ، فسأل عنه وأرسل إليه خلعة، وأنعم عليه بمال ، ووعده بإقطاع وأمر أستاذه بدر الدين بكتاش أن يذكر السلطان به إذا عاد إلى حلب ، فلم يفعل . ثم صار بعد ذلك من جملة مقدمى الحلقة وأصبح أمير طبلخاناه [3] فى سنة 719هـ / 1319م ، وتولى حكم إقليم الفيوم [4] .

وممن جادوا بأرواحهم ونالوا الشهادة أمام أسوار قلعة الروم الأمير شرف الدين بن الخطير أحد أمراء دمشق ، وكان ينتمى إلى أحد البيوت الكبري فى بلاد الروم ، ولذلك قدم بصحبته عدة مماليك كانوا ملكاً لوالده ، صاروا أمراء فيما بعد ، وقد حاز الأمير المذكور على شهرة وسمعه كبيرة بمصر . وكذلك استشهد الأمير شهاب الدين أحمد بن ركن الدين [5] أمير جاندار[6].

---

1) مختار الأخبار ص92-93 ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، ط1 ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1993م ، التحفة المملوكية ص131 .
2) الشجاعى : هو الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى ، ولى نيابة السلطنة بالشام ، وقتل سنة 693هـ / 1293م حينما سولت له نفسه انتزاع الملك من الناصر محمد بن قلاوون . (ابن حبيب : المصدر السابق : 172/1 ، ابن إياس : المصدر السابق 1/1 ص 381 – 384)
3) طبلخاناه : أو بيت الطبل ، كلمة فارسية تعنى فرقة الموسيقى السلطانية تكون هذه الفرقة بصحبة السلطان فى الأسفار والحروب . (العينى : عقد الجمان ص 40 هامش 4 .
4) النويرى : نهاية الأرب 226/31-227 ، العيني : المصدر السابق ص 124-125
1) العيني : نفس المصدر ص 146- 147 ، المقريزى : المقفى الكبير 797/3 .
2) أمير جاندار : هو الشخص الذى يحافظ على السلطان ، فلا يدخل عليه إلا من يأمن عاقبته . وهو مركب من ثلاثة ألفاظ : إحدهما عربى وهو أمير ، والثانى جان ومعناه بالفارسية والتركية الروح ، والثالث فارسى وهو دار ومعناه ممسك ، فيكون المعنى الأمير الممسك للروح . القلقشندى : المصدر السابق 461/5 .

وأخيراً فتحت قلعة الروم بحد السيف فى يوم السبت الحادى عشر من رجب 691هـ / 1292م، وقد شابت عملية الفتح أعمال عنف واسعة النطاق ، حيث وضع المسلمون السيف فى الأرمن دون أن يفرقوا بين صغير أو كبير ، أو كهل أو شاب، وسبوا النساء والذرية ، وقد دفعهم لذلك أنهم لم يجدوا هذه القلعة كعادة الحصون الأخري فيها مكاسب طائلة ، وإنما كان بها جماعة وظيفتهم القتال فقط ، فحنقوا عليهم ، ووضعوا فيهم السيوف بلا رحمة ولا شفقة ، وأسروا منهم حوالى ثلاثمائة أسيراً أحضروهم إلى مصر، فى حين اعتصم بطرك الأرمن ومن انضم إليه من الهاربين بقمة القلعة ، فأمر السلطان صاحب حماة [1] أن يرميهم بالمنجنيق ، فاستسلموا ، فلم يؤمنهم إلا على أرواحهم وأن يصبحوا فى عداد الأسرى ، فأجابوا إلى ذلك ، وأخذ بطريق الأرمن وجميع من كان معه بقلة القلعة كأسري، وكان نصيب الزردخاناه [2] السلطانية منهم ألف ومائة أسير ، وغير اسم القلعة من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين الأشرفية [3] .

وفيما يتعلق بمصير بطريق الأرمن فيقال : إنهم حينما قبضوا عليه أرسلوه إلى القدس فوصلها يوم السبت الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) سنة 1292م / 691هـ وأقام بها حيث عومل بمنتهي الإكرام . وروى بعضهم أنهم صلبوه وأوثقوا الذين معه واستاقوهم إلى مصر . ويستبعد ابن العبرى هذه الرواية ويرجح أنه قضى نحبه فى سجن دمشق [4] ولعل الرواية الأخيرة هى الأقرب إلى الصحة لأن المقريزى أشار إلى أن السلطان الأشرف دخل دمشق فى العشرين من شعبان 691هـ ، وبين يديه بطريرك الأرمن وأسراهم [5] وعندما علم الأرمن بنبأ رحيل زعيمهم رقوه إلى رتبة الجاثليقية [6] وجعلوا سيس مركزاً له [7] .

---

3) حماة : إحدى مدن بلاد الشام القديمة ، ذكرت فى التوراة . الهروى (على ابن أبى بكر) : الإشارات إلى معرفة الزيارات ص 7 ، تحقيق جانين سورديل - طومين ، المعهد الفرنسى بدمشق 1953م .
4) الزردخاناه : ويقال السلاح خاناه ، ومعناها بيت السلاح أو الزرد . وتشتمل على أنواع عديدة من الأسلحة مثل السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع ..... (مجهول : خزانة السلاح ، مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك ، ص 5 – 6 ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1978م .
5) تاريخ أبى الفداء 28/4 ، بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية ص130-131 ، المقريزى : المصدر السابق 797/3 ، القلقشندي : مآثر الأناقة فى معالم الخلافة 122/2 ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت .
1) تاريخ الزمان ص366 .
2) السلوك 778/3/1-779 .
3) الجاثليق : هو صاحب الصلاة عند النصارى . (القلقشندى : صبح الأعشى 474/5) .
4) ابن العبري : المصدر السابق ص 366 .

وبعد أن منَّ الله سبحانه وتعالى على المسلمين بفتح قلعة الروم كتبت البشائر إلى البلدان الإسلامية فكتب شرف الدين القدسي على لسان السلطان كتاباً إلى قاضي قضاه دمشق شهاب الدين الخوي [1] . معرباً فيه عن تمنيات السلطان الأشرف خليل بأن يفتح الله سبحانه وتعالى على يديه بلاد المشرق والروم والعراق . كما وصلت هذا القاضى أيضاً رسالة من قبل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي جاء فيها : " وكان الفتح المبارك فى صباح يوم السبت ، حادى عشر رجب الفرد ، سنة 691هـ بالسيف عنوة . فشفت الصوارم من أرجاس الكفر العلل بقمع العدى وكبتها . وسطا خميس الأمة يوم السبت ، على أهل يوم الأحد ، فبارك الله لخميس الأمة فى سبتها " [2] .

وكتب الإمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمى مبشراً بفتح قلعة الروم مشيراً إلى الأشرف خليل : " ..... ونظر منها إلى قلعة ضيقة المدارج ، متوعرة المعارج ، سهلية جبلية ، سماوية أرضية ، قد اكتنفها من الجبال الرواسي ما أصبحت به متظاهرة الحجب ، وسعى الفرات إلى تقبيل أقدامها ، ... فأحاطت بها العساكر إحاطة الدوائر بالمراكز ، وضايقتها مضايقة غشيت أهلها بالبلاء الذى ليس لهم دونه حاجز ، وجفت من المجانيق بكل موتور يستفزه الغضب ، ... فلم يزل يصميها بسهامه ، إلى أن زلزل قللها الشم زلزالا شديداً ، ودنا إلى مبانيها فتعاقبها بالدرس إلى أن جعلها حصيداً ، ولما كان يوم كذا أى السبت ، أذن الله بنصره ، وقضى أجل العدو الكافر بإنتهاء حصره .." [3]

وأرسل السلطان المملوكي أيضاً عدة رسائل إلى مصر بمناسبة هذا الفتح منها رسالة جاء فيها : " .... فجعل جبالها دكا ، وحاصرها حتى ألحق بها حصن عكا ، ولما أراد الله بالفتح أغلق على المغول والأرمن أبواب الصواب ، والمنح الذى أضفى على أهل الإيمان والمجاهدين أثواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره يوم السبت الحادى عشر من شهر رجب، فسبحان من سهل صعبها ، وعجل كسبها ، ومكن منها ومن أهلها ، وجمع ممالك الإسلام شملها " ويقال إن ذلك الكتاب كان بخط الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي [4] ، الذى نظم للسلطان يهنئه :

---

5) شهاب الدين الخوى : هو قاضى القضاة محمد بن أحمد بن خليل الشافعى ، أصله من خوى إحدى مدن أذربيجان ، صنف الكثير من الكتب ، وتولى قضاء القدس وغيرها ، توفى سنة 693هـ / 1293م . الكتبى : المصدر السابق 3/313-314 .

6) النويري : المصدر السابق 31/227-239 .

1) ابن حبيب : تذكره النبيه 1/152-153 .

2) شهاب الدين الحلبى : هو محمود ابن سليمان وقيل سلمان ابن فهد بن محمود الحنبلى الحلبى ثم الدمشقى ، أحد كبار الأدباء ، كان شيخ صناعة الإنشاء فى عصره ، لم يكن بعد القاضى الفاضل

لك الراية يقدمها النصـــر فمن كيقباذ إن رآها وكيخســرو
إذا خفقت فى الأفق هددت بنودها دعائم واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وفتح آتي فى اثر فتح كأنمــا سماء بدت تترى كواكبها الزهـر [1]

كما أرسل السلطان الأشرف خليل مثالاً [2] وصل إلى مصر فى بكرة يوم الاثنين الموافق عشرين من رجب 691 هـ / 1291م وهو من إملاء القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر [3]، وورد فيه : " .... ونصبنا عليها عدة مناجيق تنقض حجارتها انقضاض النسور ، وتقتنص الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم سور ، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور ، ولما أذن الله بالفتح الذى أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب ، والمنح الذى أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أبواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره فى يوم السبت حادى عشر رجب الفرد ... " [4]

مظاهر اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم بعد فتحها:

وبعد أن استولي المماليك على هذه القلعة وقبل أن يرحل عنها السلطان اصدر أوامره إلى الأمير سنجر الشجاعي بتعمير وتحصين قلعتها ، وتخريب ربضها وأن يتم إبعاده عنها ، فتأخر الشجاعي وبصحبته عساكر الشام وقام بترميم ما خربته المجانيق إلى أن صارت غاية فى الحصانة[5] كما عين بها أحد النواب وهو الأمير جمال الدين أقشى العارضي ، وذلك بعدما ألقي القبض على الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الموصلي [6] الذى رفض أن يكون نائباً بها [7] ،

مثله ، توفى سنة 725هـ / 1325م . (ابن تغر بردى : النجوم الزاهرة 264/9-265 ، الكتبى : المصدر السابق 82/4 ، الزركلى : الأعلام 172/7 .

3) العينى : عقد الجمان ص 117 – 118 ، محمد على الهرفي : شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ص 112 ، دار المعالم الثقافية بالسعودية ، ودار النصر بالقاهرة .

1) المثال : أول وثيقة يصدرها ديوان الجيش فى أمر الإقطاع ، هى عبارة عن ورقة مختصرة تكتب فيها بيانات الإقطاع . (القلقشندى : صبح الأعشى 153/13) .

2) ابن عبد الظاهر : هو القاضى محمد بن عبد الله ابن عبد الظاهر ابن نشوان ، أول من سمى بكاتب السر فى الديار المصرية . تولى كتابة السر للمنصور قلاوون ، وتمتع بمنزلة رفيعة عند الأشرف خليل ، توفى بدمشق يوم السبت منتصف رمضان سنة 691هـ / 1292م . (ابن حبيب المصدر السابق 156/1 ، ابن كثير : البداية والنهاية 369/13 ، الزركلى : المرجع السابق 234/6) .

3) بيبرس المنصورى : مختار الأخبار ص93 ، ابن حبيب : نفس المصدر 149/1 ، تاريخ ابن الوردي 339/2 .

4) تاريخ أبى الفداء 28/4 .

5) عز الدين الموصلى : أحد كبار الأمراء ، من مماليك المنصور قلاوون ، تولى نيابة السلطنة بطرابلس ، وتوفى سنة 697هـ / 1297م ، وقيل فى العالم التالى . (ابن حبيب : المصدر السابق 215/1 ، تاريخ ابن الوردى 348/2، العينى : المصدر السابق ص417) .

6) العينى : نفس المصدر ص 116 .

إلا أنه أعاده إلى ولاية قلعة الروم لأن الأمير جمال الدين المذكور بقي بها أياماً قليلة وتوفي [1] .

ومما يدل على اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم أيضاً أنه جعلها تابعة لنيابة حلب التى عزل عنها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى الذى عينه مقدم المماليك [2] بمصر [3] وولى مكانة الأمير سيف الدين بلبان السلحدار الطباخى والذى اشتهر بحسن سيرته ، وبمواقفه المشهورة ونكايته فى العدو [4]. ويقال إنه جعل عز الدين الموصلي السابق الإشارة إليه كشاد للدواوين [5] بحلب ، وحل مكان الطباخي فى نيابة الفتوحات الأمير سيف الدين طغريل [6] الإيغاني [7] . وقيل إنه عزل الطباخي بعد فترة وولي مكانة عز الدين أيبك الخازندار [8] المنصوري [9] .

وفى العام التالى أى فى سنة 692 هـ /1292م خرج الأشرف خليل إلى بلاد الشام ورتب أحوالها ثم عاد إلى مصر بعد أن جرد بعض القوات المصرية للإقامة فى حمص بزعامة بعض أمراء المماليك من أمثال الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير شمس الدين أقسنقر كرتارى ، وسيف الدين بلبان الحمصي ، فظلوا بها ثلاثة أشهر ، ثم صدرت إليهم الأوامر فى نفس العام ، وإلى صاحب حماة الملك المظفر محمود وعمه الملك الأفضل بالمسير إلى حلب والإقامة بها لإرهاب العدو فدخلوها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان وأقاموا بها لحفظ الثغور

---

7) النويرى : المصدر السابق 239/31 – 240 .

1) مقدم المماليك : هو الشخص الذى يتولى أمر مماليك السلطان ، أو الأمير من الخدام الخصيان المعروفين بالطواشية . (القلقشندى : صبح الأعشى 456/5) .
2) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ بن خلدون 464/5 ، بدون تاريخ .
3) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 10/8-11 ، 155 .
4) شاد الدواوين : ويقال مشد الدواوين ووظيفته استخلاص ما يتقرر فى الديوان على من يعسر استخلاصه منه ، وكان يضرب ويعاقب على جهل بالشرع والعادة . السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص 28 .
5) طغريل الإيغانى أو اليوغانى : أحد كبار الأمراء ، تولى عدة مناصب فى عهد المنصور قلاوون والأشرف خليل مثل نيابة السلطنة بالفتوحات أى البلاد التى استولى عليها السلطان من الصليبين مثل طرابلس وحصن المرقب وغيرهما . (النويرى : نفس المصدر 243/31) .
6) المقريزى : السلوك 778/3/1-779 ، النويرى : نفسه 243/31 .
7) الخازندار : هو الذى يتولى خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما . مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو خزانة ، والثانى فارسى وهو دار ، ومعناها متولى الخزانة . (القلقشندى : المصدر السابق : 462/5 – 463 ، السبكى : المصدر السابق ص 26) .
8) تاريخ أبي الفداء 4 / 29 .

الإسلامية من أى هجوم قد يشنه العدو على الأطراف ، ومحاولة تأمين الرعايا هناك [1] .

هذا من ناحية ومن ناحية أخري فقد بذل ولاة قلعة الروم أنفسهم جهداً كبيراً للحفاظ عليها وخداع الأعداء ومعرفة أخبارهم ، فقد أرسل الأمير عز الدين أيبك الرومي واليها فى صفر سنة 692 هـ يطلب ثلاثين سراقوجا ليرتديها من يوجههم لكشف أخبار العدو فلا يعرف من هم [2] . هذا قبل أن يعزله الأشرف خليل عندما عاد إلى مصر بعدما استولي على بهسنا من الأرمن بالأمير سيف الدين طوغان وولي مكان الأخير سيف الدين اسندمر بن عبد الله الكرجي [3] على على بر دمشق [4] .

هذا وقد صاحب احتفالات الناس بعودة الأشرف منتصراً بدعة شنعاء استحدثها وزيره شمس الدين محمد بن السلعوس [5] ، فعقب دخوله دمشق فى التاسع عشر من شعبان سنة 691هـ ، احتفل الناس به ، وكان يوماً مشهوداً وبسطوا له ، كما يبسط له إذا قدم من مصر، على الرغم من أنه لم يبسط لوالده قلاوون ولا للظاهر بيبرس رغم انتصارهما على التتار من قبل ، وكل ذلك بإيعاز من ابن السلعوس، وهذه البدعة فيها إسراف للمال ووضعه فى غير موضعه ، وفيها شر ورياء وتكليف للناس، ولذلك فالله جل وعلا سيسأله عنها يوم القيامة، لأنه حصل بسببها للناس ظلم عظيم ، فليتق العبد ربه ، ولا يحدث فى الإسلام بسبب هواه ما يؤدى إلى مقت الله له ، وإعراضه عنه ، فإن الدنيا لا تدوم لأحد ، ولا يدوم أحد فيها[6].

ثانياً : حملة بيدرا ضد جبال الكسروان:

---

1) بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية ص133-134 ، العينى : عقد الجمان ص158 ، تاريخ ابن الوردى 340/2 ، تاريخ أبي الفداء 30/4

2) المقريزى : السلوك 783/3/1 .

3) اسندمر الكرجى : كان شجاعاً وسياسياً داهية ، جباراً ظلوماً مهيباً ، ولى بر دمشق ثم نيابة طرابلس ثم حلب ، توفى سنة 711هـ / 1311م وقيل سنة 721هـ / 1321م بسجن الكرك . (ابن العماد : شذرات الذهب 25/6 ، ابن حبيب : المصدر السابق 245/1 هامش 8) .

4) النويرى : نهاية الأرب 252/31 .

5) بن السلعوس : محمد بن عثمان بن أبى الرجا التنوخى ، بلغ منزلة كبيرة عند الأشرف خليل وصارت الأمور كلها بيده ، مات من شدة الضرب بعد استصفاء ماله باتفاق الأميرين كتبغا المنصورى ، وسنجر الشجاعى سنة 693هـ / 1293م . (ابن قماق : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ص 109 هامش 21 ، ابن كثير : المصدر السابق 376/13 – 377) .

1) ابن كثير : نفس المصدر 327/13 .

وخلال وجود الأشرف خليل بدمشق أيضاً وبعد عودته من قلعة الروم ، أنفذ حملة بقيادة بدر الدين بيدرا فى شهر شعبان سنة 691 هـ ضد طائفة النصيرية [1] وهم جماعة من غلاة الرافضة الكفرة ، كانوا يقيمون بجبال كسروان أو الدروز بلبنان والتى ينبع منها نهر إبراهيم[2].

وقد دفع السلطان المملوكى لإنفاذ هذه الحملة قيام سكان هذه الجبال بقطع الطريق على التجار والمسافرين المسلمين عندما كان يحاصر قلعة الروم ، كما دأبوا على شق عصا الطاعة على نائب الشام وغيره ، وهو ما دفع بالأمير الشجاعي أن يركب إليهم ويؤدبهم فمنعه أمراء الشام لكثرتهم ومنعتهم ، ولضيق الطرق المؤدية إليهم ، هذا بالإضافة إلى موقفهم العدائي من المماليك خلال صراعهم مع الصليبين بالشام ، فعندما استولى الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، لجأ بعض الصليبين إلى جبال كسروان وحاولوا استثارة أهله ضد السلطات المملوكية ، ولذلك كله قرر الأشرف خليل أن يبادر بإرسال حمله إليهم بعدما عرف حقيقة أمرهم [3] .

وقد تولى قيادة هذه الحملة نائب السلطان الأمير بيدرا الذى كان على علم تام بطبيعة هؤلاء القوم ، ولذا كره الذهاب إليهم ، وطلب من الأشرف خليل إعفائه من هذه المهمة ولكنه هدده بالقبض عليه إذا رفض السفر ، فرضخ للأمر ، وتوجه إلى بعلبك [4] وبصحبته ثلاثة آلاف فارس فضلاً عن جماعة من كبار الأمراء منهم : شمس الدين سنقر الأشقر ، وشمس الدين قراسنقر الجوكندار[5] المنصورى نائب حلب ، وبدر الدين بكتوت الأتابكى ، وبدر الدين بكتوت العلائي [6] ، وبعث فرقة من جهة الساحل بقيادة الأمراء ركن الدين بيبرس طقصوا ، وعز الدين أيبك الحموى [1] وغيرهما ، والتقى الجميع بالجبل [2] .

---

2) النُصيرية : هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، وهم يدعون ألوهية الإمام على مغالاة فيه . ويدينون بالكثير من المعتقدات الخاطئة . (القلقشندى : صبح الأعشى 249/13 – 251) .

3) المقريزى : السلوك 779/3/1 هامش 1 .

4) العينى : المصدر السابق ص127-128 ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ص333-334 ، دار النهضة العربية ، بيروت .

1) بعلبك : مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل إثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل . (ياقوت : معجم البلدان 453/1) .

2) الجوكندار : الشخص الذى يحمل الجوكان مع السلطان ـ أى المحجن الذى تضرب الكرة به ـ مركب من لفظتين فارسيتين : جوكان أى المحجن أو الصولجان . ودار ومعناه ممسك أى ممسك الجوكان . (السبكى : المصدر السابق ص 35 ، القلقشندى : المصدر السابق 458/5) .

3) بكتوت العلائى : من كبار أمراء المنصور قلاوون ، وخدم ابنه الأشرف خليل وتمتع بمنزلة كبيرة فى عهده ، دبر كتبغا أمر قتله بالسم سنة 693هـ / 1293م خشية من التفاف المماليك الأشرفية

وهناك صادف المماليك صعوبة بالغة فى إخضاع هؤلاء السكان لعدة أسباب منها : كثرة عددهم حيث تصدى للقوات المملوكية حوالى عشرة آلاف فرد منهم ، كما كانت لديهم القدرة الفائقة على الرمى بالقسى القوية ، وامتازوا بخفة وسرعة الحركة فى تلك الجبال الوعرة، لأنهم تربوا فيها وألفوها ، هذا بالإضافة إلى قوة شوكتهم ، وبراعتهم فى الخداع وإعمال الحيلة، وهو ما تجلى فى استقبالهم الجند المملوكى بالرمى والقتال ، ثم تظاهروا بالتراجع كالمنهزمين ، فتتبعتهم القوات المملوكية إلى أماكن صعبة وطرق ضيقة كانوا يحكمون السيطرة عليها ، ثم كروا عليهم ورشقوهم بالأحجار والسهام ، فاضطرب الجيش المملوكى ، واستمات أفراده فى القتال إلى أن أستطاعوا بعد شدة عظيمة أن يخرجوا من هذا المأزق ، ولكن بعد أن تكبدوا بعض الخسائر المادية والبشرية ، حيث قتل لهم الكثير من الخيول ، وجرح جماعة من الجنود ، بينما أسر البعض الأخر ، فتحير بيدرا ورفاقة وصار لا يدرى ما يفعل [3] .

ويقال إن أهالى جبال كسروان كانوا يعتقدون أن هذا الجيش هم عسكر الشام ، فلما علموا أن قائد الحملة بيدرا نائب السلطان ، داخلهم الخوف ، وندموا على ما فعلوا ، وأطلقوا سراح بعض ما لديهم من أسرى وطلبوا منهم أن يتوسطوا فى إصلاح أمرهم مع السلطان لكى يتم الإفراج عن سراح باقى المأسورين ، وأشار الأمراء على بيدرا بتسوية الأمور مع الجبليين الذين أرسلوا له يستحلفوه على ألا يؤذيهم أو يخونهم ، ثم حملوا إليه الهدايا ، فخلع عليهم ، وقرر عليهم أموالاً يؤدونها سنوياً ، واستحلفهم للسلطان ثم رحل عنهم [4] .

وثمة رواية أخرى أثيرت حول سبب هزيمة بيدرا مفادها أنه تراخى فى قتالهم ، لأنهم قبضوا على بعض العساكر الذين صعدوا الجبل ، وعاد الباقى منهزمين ، وهو ما دفع بيدرا إلى أن يطلق سراح مجموعة من فلاحيهم الذين كانوا فى السجون ، ثم قفل إلى دمشق فاستقبله الأشرف خليل بحفاوة وترجل له عند السلام عليه ، بيد أنه سرعان ما تغير عليه ، عندما أوعز له وزيره ابن السلعوس أنه ارتشى من أهل الجبال ، فعاتبه السلطان بشدة ، فمرض من جراء

حوله ، وقيل توفى مخنوقاً قبل ذلك بأمر الأشرف خليل سنة 691هـ - 1291م . (العينى : نفس المصدر ص 253 ، ابن دقماق : المصدر السابق ص 112 هامش 3) .

4) عز الدين أيبك الحموى : كان مقداماً ، ديناً ، كثير التلاوة ، تولى نيابة السلطنة بدمشق وحمص ، توفى 20 ربيع الأخر سنة 703هـ / 1303م . (ابن حبيب : المصدر السابق 258/1 ، ابن كثير : المصدر السابق 34/14) .

5) المقريزى : المقفى الكبير 563/2 ، النويرى : المصدر السابق 240/31-242 .

1) العينى : عقد الجمان ص128 .

2) العينى : المصدر السابق ص128-129 .

ذلك مرضاً أشفى منه على الموت ، ويقال أنه تناول السم ثم عوفى من مرضه [1] .

فى حين يؤكد بعض المؤرخين أنه كان بإمكان بيدرا أن يسحق الكسروانيين وذلك عندما أحاط بجبالهم ولم يبق أمامه سوى أن يدمرهم ، إلا أنهم حملوا إليه أموالاً كثيرة عندما جن الليل، فتقاعس عن قتالهم [2] ، مما مكنهم من النيل من الجيش المملوكى فى تلك الأوعار ، ومضايق الجبال وعاد الجند شبه منهزمين ، فطمع أهالى تلك الجبال فيهم ، فاضطر بيدرا إلى تطييب قلوب كبار رجالهم ، بل وخلع عليهم فاشتطوا فى الطلب ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وأفرج عن جماعة منهم ، كانوا قد اعتقلوا بدمشق لجرائم صدرت منهم . فتألم بعض الأمراء والعساكر من جراء ذلك ، وصرحوا بأن بيدرا أساء التدبير ، وأنه أهمل أمرهم ، وفتر عن قتالهم ، لأنهم رشوة بمبلغ كبير من المال ، وتمكنوا منه لطمعه ، فعنفه السلطان ، وأنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه فى أمر الجيش [3] .

ولم ينس بيدرا من أشاعوا هذه التهمة ، وتسبب فى القبض على من روجها من الأمراء ، فيقال : إنه عندما تكلم فى حقه الأمير ركن الدين بيبرس طقصوا ، وزعم أنه أخذ رشوة من الكسروان وجد بيدرا عليه ، وأسرها فى نفسه ، وتربص به الدوائر ، فاستغل فرصة قيام السلطان بالقبض على حسام الدين لاجين نائب الشام – والذى استوحش من الأشرف خليل بعد عودته من قلعة الروم وهرب منه إلى العرب فقبضوا عليه وأحضروه إليه فبعث به إلى سجن قلعة الجبل ـ فخاطب بيدرا السلطان فى القبض على طقصوا ، لأن لاجين كان قد تزوج ابنته فقبض عليه وأعدمه بمصر[4]

وسواء هزم بيدرا نتيجة لاستبسال الجبلية وطبيعة بلادهم ، أورشوتهم له ، أو اتهام الوزير وبعض كبار الأمراء له بالرشوة ، فقد اختلف المؤرخون أيضاً فيما يتعلق برد فعل الأشرف خليل حول تلك الهزيمة التى منيت بها القوات المملوكية ، فيقال : أن خبر هزيمة بيدرا سبقه إلى دمشق قبل وصوله إليها ، فكان السلطان بين مصدق ومكذب له ، فلما عاد بيدرا وتحقق من صحة الخبر ، سبه ، وتهكم منه ، واندهش من تلك الهزيمة التى ألحقها هؤلاء الفلاحون

---

3) الصفدى (خليل بن أيبك) : الوافى بالوفيات 361/10 ، المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية ، دار صادر بيروت ، 1991م

4) ابن كثير : البداية والنهاية 328/13 .

1) المقريزى : المقفى الكبير 563/2 ، النويرى : المصدر السابق 240/31-242 .

2) تاريخ أبى الفداء : 28/4 ، العينى : نفس المصدر ص132 ، النويرى : نفس المصدر 241/31 .

بالعساكر المملوكية ، وأغلظ له فى القول بل هدده بأن يخرج من أمامه وإلا أطاح برقبته ، فخرج من بين يديه والألم يعتصره [1] .

بينما ذكر المقريزى عكس ذلك ، فأشار إلى أنه حينما عاد بيدرا إلى دمشق تلقاه السلطان ، وترجل له عند السلام عليه ، وعاتبه سرا فيما كان منه ، فاعتراه المرض ثم عوفى منه ، فتصدق بصدقات جمة ، ورد ما اغتصبه من أملاك لأربابها [2] .

ويبدو أن الأشرف خليل أراد أن يستغل ما حدث للجيش المملوكي عند جبال كسروان فى معاقبة بعض أمراء المماليك على ما بدر منهم أثناء حصار قلعة الروم ، فبعد عودته لدمشق لم ينس للأمير سنقر الأشقر ما تفوه به عندما استشار الأمراء فى فك الحصار عن القلعة حين بلغه وصول التتار ، فقال لبيدرا وهو يقصد السلطان : الحرب هو لعب الصغار ، فتأثر بذلك كثيراً، وصار كل فترة يذكر بها بيدرا والخاصكية [3] ، ولما حدث للجيش المملوكى ما حدث فى جبال كسروان ، أخذ يتهكم من الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحملة ، وأخبرهم أنه لم ير منهم شيئا رغم دأبهم الافتخار بما قاموا به من أعمال وإنجازات ، فأخبره الأمير بيبرس الجالق أنهم بذلوا ما فى وسعهم ، وما بقى لهم غير الجلوس والراحة فى بيوتهم وأن توزع أخبازهم – أى إقطاعاتهم - على الشباب ، فالتفت إليه السلطان بغضب وهدده وهو يوجه كلامه لسنقر الأشقر وكان حاضراً بأنه بإمكانه أن ينتزع إقطاعه ويعطيه لغيره ولا يوجد من يمنعه أو يخاف منه فاغتاظ سنقر الأشقر من كلامه ، وأخذ يذكره بمجد المماليك البحرية حين كان الفارس منهم إذا أخذ فى يده رمحاً فلا يقدر أحد على مواجهته ، أما اليوم فلا يستطيع الواحد منهم أن يركب فرسه أو ينزل عنه إلا بمعونة خمسة أنفس ، كما أن يده ترتعد إذا تناول سوطا ، فإذا ما رفعه لا يستطيع أن يضرب به فرسه ، فتلون وجه السلطان وتغير ، لولا تدخل أحد الأمراء الذى أخبره أن جميع عساكر مصر والشام وليس البحرية فقط يدعون له بطول الحياة حتى يعيشوا فى ظله وخيره [4] .

---

3) العينى : نفسه ص129 .

1) السلوك : 779/3/1 .

2) الخاصكية : هم الذين يدخلون على السلطان فى أوقات خلواته وفراغه ، ويحضرون للخدمة طرفى النهار ، ويركبون لركوبه ليلاً ونهارً ، ويتميزون عن غيرهم بحملهم سيوفهم وملابسهم الطرز المزركش . (العينى : عقد الجمان ص 19 هامش 1 ، الكتبى : فوات الوفيات 409/1 هامش 1) .

3) العينى : المصدر السابق ص131-132 .

وبعد قليل انفرد ابن سنقر الأشقر به ، وبين لوالده أنه أخطأ حينما رد على السلطان ، وأنه لم يكن يضره شيئاً لو سكت عما سمعه لأنه ؛ سلطان شاب حاد النفس معجب بسلطنته فأخبره والده بأنه أجابه بذلك ، لأنه يعلم بحقيقة ما فى نفسه منه ومن غيره منذ يوم قلعة الروم واستشارته الأمراء فى رفع الحصار بعد سماعه نبأ قدوم المغول ، فقد دأب على التحدث بهذا الحديث بين مماليكه وسبنى فالموت خير من مثل هذه الحياة ثم بكى بكاءً شديداً .

وبالفعل استغل الأشرف دخول الأمراء عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة 691هـ ، وعندما انصرفوا ، أرسل الأمير الشجاعي نائب دمشق والحجاب خلفهم ، فرجعوا ، فأمر عند ذلك بالقبض على سنقر الأشقر ، وطقصوا ، وطلب حسام الدين لاجين الذى هرب ناحية العرب ، فقبضوا عليه وأرسلوه للسلطان ، فحمل الجميع إلى مصر حيث أعدما الأشقر وطقصوا ، بينما نجا لاجين ، ووقعت ضجة عظيمة يوم العيد ، فلم يتهن أحد به [1] .

ثالثاً : حملة الأشرف خليل ضد بلاد سيس (أرمينيا الصغرى) سنة 692هـ / 1292م :

صفتها :

عرفها ياقوت بأنها من أكبر حصون بلاد الأرمن ، ومن أعظم مدن ثغور الشام ، تقع بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة . وبها دير عظيم يقيم به بطريرك الأرمن . "وسيس" هى أرمينية الصغري [2] . وأشار أبو الفدا إلى أنها عبارة عن بلدة كبيرة ذات قلعة لها ثلاثة أسوار فوق جبل مستطيل ، وكانت مقر ملك أرمينيا ، وعاصمة ملكه ، وقاعدة منطقة الثغور الشمالية [3] ، التى كانت تشمل العديد من المدن مثل آياس، وأذنة [4] ، وبهسنى ، وبغراس ، وطرسوس ، وقلعة الروم وغيرها من البلدان التى استولى عليها الأرمن قبل الأربعمائة [5] .

نشأة مملكة أرمينيا الصغرى :

---

1) تاريخ أبى الفداء 28/4 ، العينى : نفس المصدر ص132 .
2) معجم البلدان 338/3 ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع 766/2 ، ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) : الرحلة 91/1 ، تحقيق على المنتصر الكتانى ، ط4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1405هـ .
3) تقويم البلدان ص257 .
1) أذنة : بلد من الثغور قرب المصيصة ، كانت للأرمن على نهر يسمى سيحان . (ياقوت : المصدر السابق 133/1 ، الحريرى : الإعلام والتبيين ص 65 هامش 492 .
2) القلقشندى : صبح الأعشى 185/4 .

شهدت العشر سنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى – الخامس الهجرى مولد مملكة مسيحية فى منطقة الشرق الأدني ، هى مملكة أرمينية الصغرى ، التى قدر لها أن تعيش عمراً أطول من جميع البقايا الصليبية فى الشرق الأدنى ، عدا بعض هيئات الفرسان الاسبتارية[1] والداوية [2] . وقد قامت فى إقليم قيليقية أى فى الركن الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر ، وامتدت حتى إمارة أنطاكية [3] ، وأهلها من الروم [4] وخليط من سكان آسيا الصغرى المسيحيين الذين فروا إلى تلك المنطقة الجبلية واحتموا بها من خطر الأتراك السلاجقة [5] .

هذا وقد توالى على حكم مملكة أرمينية عدد من الأمراء والملوك منهم روبان الثالث[6]570 – 583 هـ / 1175-1187م كان أميراً على أرمينية عندما استولى صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس سنة 583 هـ / 1187م ، وقد خلفه ليون الثانى [7] 583– 616هـ / 1187-1219م الذى حظى بعطف البابا وحكام غرب أوربا ، حيث اعترف به الإمبراطور هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية ملكاً على أرمينية الصغرى ، وتم تتويجه سنة 594هـ / 1198م ، وبذلك ولدت هذه المملكة [8] .

---

3) الاسبتارية : هذه هى التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين ، أطلقت فى عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين التى تأسست فى سنة 1099م بعد استيلاء الصليبين على بيت المقدس ، وكانت الدار التى يسكنها هؤلاء الرهبان موجودة قبل ذلك فى القدس ، وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى المسيحيين . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص 129 هامش 3) .

4) الداوية : قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمتنعون عن النكاح وغيره ، تشبه طائفة الاسبتارية فى الكثير ، وتسمى طائفة فرسان المعبد ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً فى الحروب الصليبية . وكان الغرض من تأسيسها سنة 1119م حماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس . (ابن شداد : المصدر السابق ص 129 هامش 3 ، الحريرى : المصدر السابق ص 230 هامش 240) .

5) أنطاكية : مدينة من أعمال حلب ، تتصف بحصانتها وكثرة خيراتها . (ياقوت : نفس المصدر 266/1 ، الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ص 6) .

6) أبو الفداء : المصدر السابق ص234-235 .

7) سعيد عاشور : الحركة الصليبية 1155/2 – 1156 ، ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية 1976م ، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ص414 – الهيئة العامة للكتاب 1993م .

1) روبان الثالث : تولى الحكم عقب قيام زعماء الأرمن بقتل زعيمهم السابق مليح سنة 570هـ / 1175م لكثرة مساوئه ، واستدعوا روبان أو كما يقال روفين من طرسوس وولوه أمرهم . (ابن العبرى : تاريخ الزمان ص 192) .

2) ليون الثانى : كان محنكاً فى الحروب ، ولم يعقب سوى بنتاً واحدة اسمها إيزابيل توفى سنة 616هـ / 1220م فتولى سيرادان بالى صاحب قلاع ساحل البحر العناية بها والإشراف على مملكة الأرمن حوالى سنتين ثم فتك به الشيعة الإسماعيلية . (ابن العبرى : المصدر السابق ص 258) .

3) سعيد عاشور : المرجع السابق 1155/2 – 1156 ،

وقد شكل موقعها خطورة واضحة على كيان دولة المماليك ، فقد استغل ملوكها موقع مملكتهم الجغرافي بين آسيا الصغرى من ناحية ، وشمال الشام والعراق من ناحية أخرى ، فى تقديم العون للصليبيين بالشام ، والاتصال بالبابوية والقوى المسيحية فى الغرب الأوربي التى كان شغلها الشاغل هو الإجهاز على دولة المماليك بأى وسيلة ، فقد تقدم أحد الرهبان الفرنسيسكان واسمه Fidenzio سنة691هـ / 1291م بمشروع إلى البابا نيقولا الرابع 687 – 692هـ 1288-1292م نادى فيه بتحويل تجارة الهند عن البحر الأحمر ومصر إلى الخليج العربى وفارس ثم أرمينية الصغرى وموانى قيليقية ومن هناك تحمل السفن الأوربية المتاجر الأسيوية إلى الغرب . وقد لجأت المدن الإيطالية تحت ضغط البابوية إلى استخدام هذا الطريق ، مما يفسر التنافس الشديد فيما بينها وبخاصة بين البندقية وجنوه فى البلقان وموانى البحر الأسود والقسطنطينية وجزر بحر إيجه ، فضلاً عن جزيرة قبرص وكريت [1] .

وفى العام التالى أى فى سنة692 هـ / 1292م تقدم داعي آخر من نابلي أسمه ثاديوس Thaddeus بتقرير عنيف عن سقوط عكا أراد من ورائه أن يستثير به الغرب لإرسال حمله صليبية جديدة ، واختتمه بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين [2] .

كما تمكن الأرمن من خلال موقع بلادهم من الاتصال والتحالف مع مغول فارس والعراق وتحريضهم على مهاجمة المسلمين فى الشام ، مما جعل أراضي أرمينية الصغري هدفاً لإنتقام المماليك من ناحية ، ومسرحاً مفتوحاً لحرب مستعرة مستمرة بين جحافل المغول وجيوش المماليك ، وعلاوة على ذلك فإن العطف الذى كان يكنه آل هوثوميان فى سيليسيا بجنوب شرق آسيا الصغرى لأمراء المغول أوغر صدور السلاطين المماليك فأكثروا من إغاراتهم المفاجئة على أرمينيا [3] ، لأن حاكم سيس كان يمالئ التتار ويميل إليهم ، ويساعدهم فى

Stubbs : seventeen lectures on the study of med . and Modern History P.181-184 (Oxfrd,1900)

4) سعيد عاشور : نفس المرجع 1134/2 – 1135، 1148 – 1149 ،
Atiya (A.S.) The Crusade in The Later Middle Ages , P.41 (London . 1938)

1) سعيد عاشور : نفسه 1135/2 .

2) عزيز سوريال عطية : الحروب الصليبية وتأثريها على العلاقات بين الشرق والغرب ص124-125 ترجمة فيليب صابر سيف ، ط2 ، دار الثقافة ، القاهرة ، محمود محمد الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص94 ، دار المعارف القاهرة 1979م .

حرب المسلمين والإغارة على أراضيهم [1] وهو ما لم تغفره لهم سلطنة المماليك فعملوا على تحطيمها[2] .

وكان العداء بين المماليك والأرمن فى حقيقة أمره حلقة فى سلسة العداوات بين القوى الإسلامية والمسيحية زمن الحروب الصليبية نفسها ، وهكذا استمرت الحروب بين المماليك وأرمينية الصغرى فى عصر أسرة قلاوون كما حدثت من قبل فى عهد الظاهر بيبرس [3] .

ويعد العقد الأخير من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من أعصف الفترات فى تاريخ أرمينيا ، حيث تم توجيه عدة ضربات متلاحقة إليهم ، فتعهد ملوكها بدفع جزية سنوية ، إلا إنهم توقفوا عن دفعها فى عهد الأشرف خليل ، فأرسل إلى ملكها هيثوم الثانى [4] 688- 693هـ / 1289-1293م عقب فراغه من فتح عكا يخبره بفتحها وأن يعتبر بما حل بها، ويذكره بقوة المماليك وبأسهم ، وهدده فى نفس الوقت بإرسال الإتاوة السنوية التى كانوا يبعثون بها لسلاطين المماليك ، والحضور لمقابلته ، وإلا أغار على بلاده ، وقبض عليه ، وسيرى مالا طاقة له به . وقد أشار الأشرف خليل أيضاً فى رسالته إلى أنه تمكن من فتح عكا فى مدة بسيطة ، وردم خندقها ، وهدم أبراجها ، وقتل فرسانها فلم تفدهم شجاعتهم ولا كثرة عددهم وعتادهم ، ولم تمنعهم حصونهم ، وجاءهم الموت من كل مكان ، فولوا منهزمين، وصاروا ما بين قتيل وجريح وأسير ، كما ألمح الأشرف فى خطابه كذلك إلى هزيمة فرسان الداوية والاسبتارية ، وفرار البنادقة فى البحر . ومن ثم طالب ملك أرمينية بأن يأخذ عبرة مما حصل للفرنج بعكا ، حتى لا يندم فى وقت لا ينفع فيه الندم ، وعليه أن يحمل الأموال المقررة عليه ويحضرها بنفسه للسلطان ، أما إذا سولت له نفسه عصيان المماليك وطاعة إبليس فسيجني على نفسه ، وسيأتي الدور على بلاده التى سيطول حزنه

---

3) القلقشندى : صبح الأعشى 21/14 .
4) سعيد عاشور وآخرون : موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ص414- 415 ، محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق فى عهد المماليك ص84 هامش2 ، ط2 ، المطبعة العلمية ، دمشق 1984م .
5) ابن أبى الفضائل (مفضل) : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص152 ، 226 ، باريس 1932م ، عاشور : الحركة الصليبية 1156/2 ، الحويرى : المرجع السابق ص94 .
1) هيثوم الثانى : تولى حكم أرمينيا الصغرى للمرة الثالثة فى الفترة من 696 – 705هـ / 1296 – 1305م ، وقد انضم إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وتوشح فى أواخر حياته بزنار رهبنة مارى فرنيسس وتوفى راهباً . (ابن العبرى : تاريخ الزمان ص 377 هامش 1) .

عليها . ونصحه فى نهاية الرسالة أن ينفذ ما طلبه منه ، ويفهم ما قاله له ، لكى ينجو بنفسه ولا يعرضها للهلاك [1].

إلا أن هذا لم يمنع قيام جماعة من أهالى ملطية إحدى مدن الأرمن من الإغارة على بعض التجار المسلمين وأخذوا ما معهم ، وذلك فى عام 691هـ / 1291م ، فأرسل إليهم نائب حلب وقتئذ الأمير سيف الدين بلبان الطباخى بعدما استأذن السلطان المملوكي بالقاهرة حملة عسكرية قوامها ألف وخمسمائة جندى أسند قيادتها إلى الأمير بكتمر الحلبى [2] الذى سار إلى أن بلغ ملطية وهجموا على ربضها ، ثم اشتبكوا مع القوات المغولية التى أتت عندما استنجد بهم حاكمها ، وأنزلوا بهم هزيمة قاسية على الرغم من قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم والذى قدر بحوالى أربعة ألاف جندى ، وذلك لشجاعة وفروسية بكتمر الحلبى ، والرغبة التى أبداها الجنود إما فى الانتصار على العدو ومن ثم تبيض وجوههم عند الله والسلطان ، أو الاستشهاد فى سبيل الله ومن ثم الفوز برضوانه سبحانه وتعالى ، هذا بالإضافة إلى أن من يفكر فى الهروب إلى حلب البعيدة عن ملطية قد يتعرض للأخطار فى الطريق ، ويكون عرضه لعذاب الله تعالى ، ولهذه الأسباب حملوا حملة صادقة على المغول الذى خر قائدهم صريعاً نتيجة طعنة من أحد الحلبيين ، وولى بقية أصحابه منهزمين ، واستولى المسلمون على ما معهم من جمال وأغنام ، وعادوا إلى حلب الشهباء سالمين ومعهم رءوس القتلى وثلاثون أسيرا من التتار ، فكتب نائب حلب بذلك إلى الأشرف خليل فأثنى عليه وبعث إليه بالتشاريف بينما تمت ترقية بكتمر الحلبى من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه ، وفى نفس الوقت وردت رسل حاكم ملطية ومعهم جميع أمتعة التجار المفقودة ، فأمر السلطان بإطلاق سراح أسراهم [3] .

وفى العام التالى أى فى سنة 692هـ / 1292م تأهب الأشرف خليل لغزو بلاد سيس ، بعد أن كتب إليه نائب حلب يخبره أن صاحبها تعرض لبعض التجار ، واستولى على أموالهم ، وأسر البعض منهم ، وأنه لم يستجيب له عندما طالبه برد الأسرى ، وما نهبه من مال ، رغم تهديده إياه ، بل إنه انكر صلته

---

2) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص224-225 ، مطبعة الاعتماد ، دار الفكر العربى بمصر ، وفاء محمد على : جهود المماليك الحربية ضد الصليبين والمغول ، ص66-67 ، ط1 ، المكتب العلمى ، 1985م

1) بكتمر الحلبى : هو الأمير سيف الدين بكتمر الحلبى ويقال الجلمى ، مات سنة 697هـ / 1297م ، وقيل فى العام التالى وهو متوجه إلى بلاد الروم بصحبة سلامش أحد مقدمى المغول الذى استعان بالسلطان المملوكى لاجين حينما شق عصا الطاعة على غازان المغولى . (ابن حبيب : المصدر السابق 210/1).

2) المقريزى : المقفى الكبير 485/2-486 ، العينى : عقد الجمان ص134-135 أحداث 691 هـ .

بالموضوع ، وأنه ليس لديه علم بشئ من ذلك فاستدعي الأشرف خليل أمراء المماليك وشاورهم فى الأمر ، فأجمعوا على ضرورة فتحها ، لأنها من البلاد العامرة بالخيرات ، كما ذكروه بما فعله السلطان الظاهر بيبرس بها وبالقلاع التى انتزعها وأعطاها لكبار مماليكه وأمرائه [1] .

ومن هنا قرر السلطان المملوكى أن يقود الجيوش بنفسه ويغزو بلاد سيس ويملكها ، ثم استدعي وزيره ابن السلعوس وأمره بتجهيز الإقامات والأعلاف ، وأن يكتب لنواب الشام بالتأهب وإعداد آلات الحصار وغيرها .

وفى شهر صفر 692هـ انطلقت العساكر المصرية فى طريقها إلى دمشق بقيادة نائب السلطنة الأمير بيدرا ، ثم سار الوزير بالخزائن ، وركب السلطان على الهجن ، وفى خدمته جماعة من الأمراء والخاصكية ، وتوجه إلى الكرك [2] من غير الدرب المألوف الذى يسلك منه إلى بلاد الشام ، فرتب أحوالها ، وخلع على نائبها ، ثم غادرها إلى دمشق فدخلها فى تاسع جمادى الآخرة سنة 692 هـ ، بعد وصول بيدرا والوزير بثلاثة أيام فاستقبله أهالى دمشق بحفاوة بالغة ، بينما نزل هو بالقصر الأبلق الكائن بالميدان الأخضر ، وشرع فى تجهيز العساكر واستعرضها ، فوافاه أحد مماليك نائب حلب وأخبره أن وفداً من قبل صاحب سيس قد حضروا طالبين الصلح . فأحضرهم السلطان إلى دمشق ، وجلس فى الميدان الأخضر ، واستعرض أمامهم الجيوش المملوكية ليرهبهم ، ويفت فى عضدهم ، فاندهش أفراد هذا الوفد بعدما رأوا مدى أبهة وعظمة العسكر المملوكي ، ثم دخلوا على السلطان وقبلوا الأرض بين يديه ، وقرأوا على مسامعه كتاب مبعوثهم ، والذى حوى بين دفتيه الكثير من مظاهر التضرع والذلة ، وطلب العفو ، والتماس رضاء السلطان وعطفه ، وأوضح أن السلطان قصده من غير سبب يوجب ذلك ، ونفى ما نسب إليه مشيراً إلى أنه إذا ثبت عليه أو على أى بلد من بلاده شئ من ذلك فهو مسئول عن رد ما أخذ من أموال التجار وغيرهم أضعافا مضاعفة .

ليس هذا فحسب بل إنه طلب من الأشرف خليل أن يرسل إليه شخصاً ثقة ليحلفه على أن لا يدع فى بلاده أسيراً من المسلمين ، كما تعهد بأن يدفع للسلطات المملوكية ضعف الأموال المقررة عليه ، ثم قدّم نواب ملك الأرمن ما فى صحبتهم من هدايا من البلور الفاخر والأواني الذهبية والفضية والمرصعة ،

---

3) العينى : عقد الجمان ص149-150 .

1) الكرك : قلعة مشهورة حصينة فى طرق البلقاء بالشام من ناحية جبال الشراة . (ياقوت : المشترك ص 371) .

والفصوص والبسط الهائلة ، وأعرب حاكم سيس فى نهاية رسالته أن البلاد بلاد السلطان ، وهو نائبه فيها . ويبدو أن هذا العرض المشار إليه لقى قبولاً من قبل نائب حلب ، وهو ما دفعه إلى أن يبعث برسالة مع مملوكه إلى السلطان بدمشق ، يشير فيها عليه بقبول هداياهم وغض الطرف عنهم [1] .

وثمة رواية أخرى أوردها ابن إياس نستشف منها أن صاحب سيس أرسل يطلب الصلح بعدما وصلت الجيوش الإسلامية لبلاده ، فقد أشار إلى أن الأشرف بعدما عرض عساكره بدمشق، جرد جماعة منهم نحو بلاد سيس ، فلما وصلوا إلى هناك ، راسلهم فى طلب الأمان ، فأخبر الأمراء السلطان بذلك ، فكتب إليهم مشترطا على ملك الأرمن أن يسلم قلاع تل حمدون، والبهسنا ، ومرعش لكى يحصل على الأمان وإن رفض تسليمها فعليهم أن يحاصروه ، فاضطر صاحب سيس إلى تسليم القلاع المذكورة ، وحدث الصلح ، وقفل الجنود بدون قتال[2] .

وبغض النظر عما إذا كانت العساكر الإسلامية قد سارت إلى سيس أو ظلت بدمشق ، فإن الذى بادر بطلب الصلح هو الجانب الأرمنى الذى اتفق مع نظيره المملوكى على تسليم بعض القلاع مثل مرعش ، وتل حمدون ، وبهسنى ، وأن يبعث للسلطان بمفاتيحها وإلا غزاها ، وبالفعل سافر وفد الأرمن ثم عاد ومعه مفاتيح القلاع المذكورة وبعض الهدايا الأخرى ، ولكن ملك سيس أبدى رغبته فى أن يكون نائباً للسلطان فى بهسنى ويقوم بجميع ما يصل إليها ، إلا أنه طلبه قوبل بالرفض ، وقرر عليه مائة ألف درهم زيادة ، وتم تعيين والى بر [3] دمشق الأمير سيف الدين طوغان المنصورى [4] نائباً بها ، وأوصاه بحفظها ، لأنها كانت من أجل القلاع وأحصنها ، وتمتاز بكثرة ضياعها ومزارعها . ولم ينس السلطان أن يكتب إلى صاحب حلب بعدم الإغارة على بلاد الأرمن ، وبإكرام صاحبها [5] .

---

1) النويرى : نهاية الأرب 249/31-250 ، ابن تغردى بردى : النجوم الزاهرة 12/8-13 ، ابن حبيب : تذكره النبيه 160/1 ، العينى : المصدر السابق ص150-151 ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص225 .

2) بدائع الزهور 371/1 .

3) والى البر : أو نظر البر ، ويتحدث متولى هذه الوظيفة فى أمر الشرطة بظاهر دمشق . (النويرى : المصدر السابق 114/31 هامش3) .

4) طوغان المنصورى : أحد كبار الأمراء ، تولى عدة مناصب بالشام زمن الأشرف خليل منها شد الدواوين بالشام سنة 689هـ / 1290م ، وحكم مدينة بهسنا بعد فتحها سنة 692هـ / 1292م ، كما تولى نيابة السلطنة بقلعة الروم فى السنة المذكورة بدلاً من الأمير عز الدين الموصلى . (العينى : عقد الجمان ص ص 36 ، 151 ، 187).

1) العينى : المصدر السابق ص151-152 ، ابن كثير : البداية والنهاية 332/13 .

ويرى البعض أن طوغان لم يكن نائباً بها وإنما سافر فقط لتسلم بهسنا وهو ما حدث فى أوائل رجب سنة 692هـ / 1292م فدقت البشائر بقلعة دمشق ، ورتب السلطان فى نيابة بهسنا الأمير بدر الدين بكتاش المنصورى الزردكاش [1] ، وعين بها قاضيا وخطيباً ، واستخدم بها بعض الرجال والحفظة , ثم عاد طوغان ومعه رسل صاحب سيس بالهدايا والتقادم إلى دمشق فى رجب من السنة المذكورة فوجدوا السلطان قد غادرها إلى حمص فأدركوه بها [2] .

وهكذا استرد المسلمون قلعة من أعظم القلاع وأحصنها ، وقد فرح الناس بفتحها لأنها كانت مصدر أذى عظيم على المسلمين [3] ، وكانت تابعة لهم من قبل حيث كان يحكمها من جهة الملك الناصر يوسف [4] صاحب حلب الأمير سيف الدين العقرب ، فلما استولى هولاكو على حلب ، باعها لصاحب سيس مقابل مائة ألف درهم ، أعطاه منها ستين ألفاً فقط ، وأخذوها وبقيت فى أيديهم حتى استردها سلطان المماليك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون صفوا عفواً من غير قتال وجاءته مفاتيحها وهو بدمشق [5] .

ويبدو أن طموحات الملك الأشرف خليل كانت كبيرة جداً ، وحدثته نفسه بعد دحر الصليبين فى عكا ، وإذلال الأرمن والتتار فى قلعة الروم وسيس وغيرهما أن يستولى على المشرق والروم والعراق ، ويملك البلاد من مغرب الشمس إلى مطلع الإشراق [6] ويكاد يجمع المؤرخون على أن هذا السلطان لو طال به العمر لاستنقذ العراق كما أنقذ غيرها من أيدى أعداء المسلمين ، لأنه كان شجاعاً ،

---

2) الزردكاش : أحد الصناع بالسلاح خاناه أو بيت السلاح، مهمته إصلاح وتنظيف وتجديد الأسلحة ..... (مجهول : خزانة السلاح ص 16 – 17) .

3) المقريزى : المقفى الكبير 798/3 – 799 ، السلوك 784/3/1 .

4) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة 12/8 .

5) الناصر يوسف : هو يوسف بن محمد بن غازى بن يوسف ابن أيوب ، ولد بقلعة حلب سنة 627هـ / 1230م وحكم حلب ، وبلاد الجزيرة ، وحران والرها والرقة وحمص ، وقاتل المماليك بمصر ، واستقر فى دمشق ، وقتله هولاكو بعد انتصار المماليك على المغول فى عين جالوت ثم حمص فى شوال 658هـ / 1260م وقيل فى سنة 659هـ / 1261م . أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل) الذيل على الروضتين ص 212 ، نشره السيد عزت العطار الحسينى ، ط2 ، دار الجيل ، بيروت 1974م ، الحنبلى : شفاء القلوب ص 364 – 374 ، الكتبى : فوات الوفيات 361/4 وما بعدها ، الزركلى ، الأعلام 249/8 – 250)

3) الكتبى : المصدر السابق 406/3 ، الصفدى : الوافى بالوفيات 399/13 ، الذهبى العبر 374/5 ، ابن العماد : شذرات الذهب 419/5 ، تاريخ ابن خلدون 465/5 ، بطرس البستانى : دائرة المعارف 462/7-463 .

1) النويرى : المصدر السابق 231/31 ، أحمد مختار العبادى : فى التاريخ الأيوبي والمملوكى ص248-249 ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1992م .

مقداماً وقت القتال ، عالى الهمة ، تخافه الملوك فى أقطارها ، ولعل الله سبحانه وتعالى قد عفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده وإنكائه فى الكفار[1] .

2) الكتبى : نفس المصدر 406/3 ، الصفدى : المصدر السابق 399/13 ، ابن إياس : المصدر السابق 376/1-377 ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق 22/8 ، المقريزى : السلوك 791/3/1 .

الخـاتمـة

اتسمت علاقة مصر ببلاد الأرمن بالعداء قبل عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، واستمر ذلك فى عهده ، فقد استغل هؤلاء طبيعة أرضهم الوعرة ، ووقوع أرضهم شمال ممتلكات المماليك ، بالإضافة إلى اختلاف عقيدتهم الدينية ، وأغاروا على المسلمين ، وتحالفوا مع القوى المناوئة للمماليك كالصليبين وملوك غرب أوروبا وباباوات روما الذين حاولوا استغلال بلاد الأرمن فى مهاجمة الأراضى المملوكية أو ضرب مصالحهم الاقتصادية عن طريق نقل سلع الشرق لأوربا دون وساطة المماليك ، كما تحالفوا مع المغول – الذين سيطروا على بعض أراضي الأرمن مثل قلعة الروم – لإزالة الكيان المملوكي ، ومن ثم كانت بلاد الأرمن فى كثير من الأحيان مسرحاً للمعارك بين الأرمن والمغول من جهة والمماليك من جهة أخري الذين شعروا بالخطر ، ومن ثم وجهوا عدة ضربات مؤلمة للأرمن وحلفائهم .

وقد تراوحت السياسة التى اتبعها السلطان المملوكي الأشرف خليل إزاء الأرمن ما بين اتباع سياسة التهديد تارة ، واستخدام حرب الأعصاب تارة أخرى لتثبيط همم الأرمن ، كما لم يتردد فى الخروج بنفسه لكسر شوكتهم ووقف اعتداءاتهم . ورغم شجاعة الأشرف خليل إلا أنه أعتاد على عدم الإنفراد بالرأي ، وشاور أمراءه فى الأمور التى تتعلق بسلامة الدولة وهو ما حدث حينما خرج سنة 691هـ / 1291م لغزو قلعة الروم ، وفى العام التالى لمهاجمة بلاد سيس .

كذلك لوحظ أنه كان يحكم سيطرته على أمراء الشام فلم يتأخر نوابها فى تجهيز معدات القتال عندما شرع فى فتح عكا ثم قلعة الروم وبلاد سيس ، مما يدل على استعداد المماليك الحربي وأنهم كانوا يملكون ترسانة حربية كفلت لهم تحقيق النصر على عدوهم .

كذلك يلاحظ من خلال سلسلة الحروب التى خاضها المماليك ضد الأرمن ضعف الجانب الأرميني بدليل أنهم كانوا يستعينون إما بإخوانهم الأرمن ، أو يخف المغول لنجدتهم ولكن دون جدوى ، نظراً للظروف الداخلية التى أحاطت بالمغول وقتئذ ، وبسالة وإصرار المماليك الذى تجلي فى إظهار بعض البطولات الفردية ، وما قدموه من شهداء خلال هذه المعارك .

وقد علت نبرة البعض متهمة المماليك والأشرف خليل بإتباع سياسة العنف تجاه الأرمن ومن قبلهم الصليبين فى عكا إلا أن ذلك كان مرجعه أن المقيمين بتلك المواضع كانت وظيفتهم فقط التفرغ لقتال المسلمين والاعتداء عليهم .

أما عن سياسته القاسية تجاه بعض أمرائه فربما تعود إلى تقصير البعض منهم كما حدث لبيدرا عند جبال كسروان ، أو تفوه البعض الأخر بما لا يليق فى وقت غير مناسب كما بدر من سنقر الأشقر أثناء حصار قلعة الروم ، أو ربما يرجع إلى طبيعة شخصيته التى أثارت مخاوف والده والذى كان يرفض أن يليه فى السلطنة ، أو ربما الغرور الذى أصابه فى نهاية حياته بعدما أحرزه من انتصارات سواء على الصليبين أو المغول أو الأرمن ، أو ربما إعجابه بشبابه وصغر سنه .

ولا يخفى علينا أن الأشرف خليل حرص على أتباع سياسة تأمين البلاد المفتوحة فبعدما انتصر على الأرمن وأخذ الكثير من قلاعهم مثل الروم ، ومرعش ، وتل حمدون والبهسنا ، اتخذ سلسلة من الإجراءات هدفها بث الأمن بتلك النواحي فعزل بعض الولاة وعين آخرين اشتهروا بالكفاءة كما حدث فى قلعة الروم وبهسنا ، ولم ينس أن يجرد العساكر بين الحين والأخر إلى نيابة حلب التابعة لها هذه المدن المذكورة لتأمين أطراف مملكته .

وأخيراً يكاد يكون هناك إجماع على بسالة هذا السلطان الشاب ، وأنه نجح فى سياسته الخارجية ، وتعامل مع أعدائه بمنتهي الحزم ، ولذلك حاول أن يخطب وده الكثير من أمراء وملوك الدول الأخري ، وربما لو عاش لحقق الكثير ، غير أن قسوته مع بعض أمرائه كلفته حياته حيث اغتالوه وبطريقة منفرة فى إحدى قري البحيرة ، ولكن هذه هى طبيعة هذا العصر فقد لقى الكثير من سلاطين المماليك مصرعهم على يد مماليكهم .

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد مختار العبادى (الدكتور) : فى التاريخ الأيوبي والمملوكي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1992م .
- الإدريسي (محمد بن عبدالله ، توفى 560هـ) : نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، م2 ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 1989م .
- ابن إياس (محمد بن أحمد ، توفى 930هـ) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج1 ، ق1 ، ط2 ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1982م .

- بطرس البستاني : دائرة المعارف ، م7 ، بيروت ، لبنان .

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي ، توفى 779هـ) : الرحلة ، م1 ، تحقيق على المنتصر الكتاني ، ط4 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1405هـ .

- بيبرس المنصورى (ركن الدين الخطائي الدويدار ، توفى 725هـ) :

ـ التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، ط1 ، نشرة عبدالحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1987م .

ـ مختار الأخبار أو تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هجرية ، ط1 ، حققه عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة 1993م .

- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، توفى 874هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج8 ، ط1 ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1992م .

ـ كما رجعت إلى الأجزاء 7 ، 9 ، 10 ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

- ابن حبيب (الحسن بن عمر ، توفى 779هـ) : تذكره النبيه فى أيام المنصور وبنية ، ج1، حققه محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 1976م .

- الحريرى (أحمد بن على ، كان حياً حتى آخر شوال سنة 926هـ / 1519م) : الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ، تحقيق مهدى رزق الله أحمد ، الطبعة الأولى ، دار الدعوة ، الإسكندرية 1986م .
- الحنبلى (أحمد بن إبراهيم ، توفى 876هـ) : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوى ، دار المناهل للطباعة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1996م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، توفى 808هـ) : تاريخ ابن خلدون ، ج5 ، بدون تاريخ .

- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد ، توفى 809هـ) : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال عز الدين على ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 1985م .

- الذهبي (محمد بن أحمد ، توفى 748هـ) : العبر فى أخبار من غبر ، ج5 ، ط2 ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت 1984م .

- السبكى (عبد الوهاب بن على ، توفى 771هـ) : معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمد على النجار وآخرون ، ط 2 ، مكتبة الخانجى ، القاهرة 1993م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

ـ الحركة الصليبية ، ج2 ، ط3 ، مطابع سجل العرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1976م .
ـ مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت .
ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ، الهيئة العامة للكتاب ، 1993م .
ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية .

- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ، توفى 665هـ) : الذيل على الروضتين ، نشره السيد عزت العطار الحسينى ، ط2 ، دار الجيل ، بيروت 1974م .
- ابن شداد (يوسف بن رافع ، توفى 632هـ) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط2 ، مكتبة الخانجى ، القاهرة 1994م .
- الصفدى (خليل بن أيبك ، توفى 764هـ) : الوافى بالوفيات ، ج10 و 13 ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، دار صادر بيروت 1991م .
- ابن عبد الحق (عبد المؤمن البغدادي ، توفى 739هـ) : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع م2 ، 3 ، ط1 ، تحقيق على محمد البجاوى ، دار الجيل ، بيروت 1992م .
- ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين بن هارون ، توفى 685هـ) :

ـ تاريخ الزمان ، ترجمة اسحق أرملة ، دار المشرق ، بيروت 1991م .
ـ تاريخ مختصر الدول ، ط3 ، دار المشرق ، بيروت 1992م .

- عزيز سوريال عطية (الدكتور) : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين المشرق والغرب ، ط2 ، ترجمة فيليب صابر سيف ، دار الثقافة ، القاهرة .

- ابن العماد (عبد الحى بن أحمد الحنبلي ، توفى 1089هـ) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب الجزءان 5 ، 6 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

- العينى (محمود بن أحمد ، توفى 855هـ) : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، حققه محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب 1990م .

- أبو الفداء (إسماعيل بن محمد ، توفى 732هـ) :

- تقويم البلدان ، طبع فى باريس ، دار الطباعة السلطانية 1850م
- المختصر فى أخبار البشر ، ج4 ، المطبعة العامة 1828م

- ابن أبى الفضائل (مفضل) : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس 1932م.
- القلقشندي (أحمد بن على ، توفى 821هـ) :

- مآثر الأناقة فى معالم الخلافة ، ج2 ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج4 ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط1 ، دار الباز بمكة ، ودار الكتب العلمية ، بيروت 1987م .

كما رجعت إلى الجزئين 1 ، 4 – تحقيق يوسف على طويل ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق 1987م .

ـــــ ج5 ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

ـــــ ج 13 ، المطبعة الأميرية ، القاهرة 1918م .

- الكتبى (محمد بن شاكر ، توفى 764هـ) : فوات الوفيات والذيل عليها ، ج3 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت 1973م .

- ابن كثير (إسماعيل ابن عمر ، توفى 774هـ) : البداية والنهاية ، ج13 ، الناشر مكتبة المعارف بيروت ، بدون تاريخ .

كما رجعت إلى الجزئين 13 ، 14 – تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، ط5 ، دار الحديث ، القاهرة 1998م .

- مجهول : خزانة السلاح ، مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الأيوبيين والمماليك ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1978م .

- محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق فى عهد المماليك ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق 1984م .
- محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : دولة بنى قلاوون فى مصر ، مطبعة الاعتماد ، دار الفكر العربي ، مصر .

- **محمد على الهرفي (الدكتور) :**

- شعر الجهاد فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، دار المعالم الثقافية بالمملكة العربية السعودية ، ودار النصر للطباعة الإسلامية بالقاهرة .

- **محمود محمد الحويري (الدكتور) :**

- الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، دار المعارف ، القاهرة 1979م .

- **المقريزى (أحمد بن على ، توفى 845هـ) :**

- المقفى الكبير ، الجزءان 2 ، 3 ، ط1 ، تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1991م

- السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 ، ق2 ، 3 - نشره محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1939م .

- **النويري (أحمد بن عبد الوهاب ، توفى 733هـ) :**

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج31 ، تحقيق السيد الباز العرينى ، الهيئة العامة للكتاب 1992م .

- **الهروى (على بن أبى بكر ، توفى 611هـ) : الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل – طومين ، المعهد الفرنسى بدمشق 1953م .**

- **ابن الوردى (عمر بن مظفر ، توفى 749هـ) :**

- تتمة المختصر فى أخبار البشر ، م2 ، المطبعة الحيدرية ، النجف 1969م .

- **وفاء محمد على (الدكتورة) :**

- جهود المماليك الحربية ضد الصليبين والمغول ، ط1 ، المكتب العلمى للنشر ، 1985م .

- **ياقوت (شهاب الدين ابن عبدالله الحموى ، توفى 626هـ) :**

- المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط2 ، عالم الكتب ، بيروت 1986م .

- معجم البلدان ، الأجزاء 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، دار الفكر ، بيروت .

- كما رجعت إلى الأجزاء 3 ، 4 ، 5 ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1990م .

- **Atiya (A.S) : The crusade in the later middle Ages (London 1938)**

- **Setton , (K.M) : A History of The Crusades , (2Vols) . (Pennsylvania , 1958**

- **Stubbs : Seventeen lectures on The study Of Med . And Modern History . (oxford , 1900)**